



ما بعد أوكراينا المواجهة الروسية-الأطلسية وإمكانية توسعها

أحمد دهشان



ما بعد أوكرانيا المواجهة الروسية-الأطلسية وإمكانية توسعها

انطلقت فجر يوم الرابع والعشرين من فبراير (شباط) ما أسمتها موسكو "العملية العسكرية الخاصة" في الأراضي الأوكرانية؛ لأجل "حماية" سكان الدونباس من هجمات "النازيين الجدد"، أو عملية "الغزو" الروسي لأوكرانيا، كما سمتها الأخيرة، وكذلك الغرب.

خلافًا لكل التوقعات، حتى الروسية منها، تحولت العملية العسكرية "الخاصة" إلى عملية شاملة تهدف إلى تطويق العاصمة كييف، والسيطرة عليها، إلى جانب المدن الكبرى في الشرق والجنوب الأوكراني، وربما الغرب أيضًا، وإسقاط السلطة السياسية الحالية، واستبدال سلطة جديدة "منتخبة" بها، والقضاء على "النازيين الجدد" الذين استولوا على القرار السياسي الأوكراني؛ من أجل "تحرير" الشعب من نيرهم، ونزع سلاح الجيش، وإنهاء أي إمكانية قد تؤدي إلى صنع أوكرانيا قبله نووية مستقبلاً، وإعلانها دولة محايدة، واعترافها بتبعية شبه جزيرة القرم للاتحاد الروسي، واستقلال إقليم الدونباس—هذه هي الأهداف الروسية المعلنة لهذه العملية.

بعد موجة عاتية من الإدانات الغربية، والعقوبات التي وصلت إلى حد الحصار الكامل، بشكل لم يسبق ربما له مثيل في التاريخ الحديث لكل ما هو روسي، وما بدا من "تعثر" للعملية العسكرية نتيجة المقاومة "البطولية" للشعب الأوكراني حسب الرواية الغربية، بدأت تدور في الكواليس الأمريكية، وفي منطقة الجوار القريب لروسيا، أحداث تبو جادة عن مخطط يهدف إلى "توريث" موسكو في حرب استنزاف طويلة قد تمتد إلى عدة سنوات، وفتح جبهات جديدة للقتال، وتحديدًا في جورجيا ومولدوفا، اللتين تقدمتا بطلب عاجل للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي¹، وهو ما قد يؤشر إلى إمكانية توسع هذه الحرب، وعدم توقفها عند حدود أوكرانيا.

تستعرض هذه الدراسة مسار الحرب الحالية، والجذور التاريخية للصراع القديم المرشح للتجدد في المناطق الجورجية والمولدوفية المتنازع عليها، التي أعلنت استقلالها من جانب واحد، الموالية لموسكو.

الاضطراب الروسي

الحرب هي الحرب، لا ينتج عنها سوى الدمار، والقتل، والجراح التي قد لا تندمل، وعداء بين الشعوب ربما يظل ملازمًا لها عبر التاريخ. لكن أي حرب بحاجة إلى "شرعية"، أو "غطاء" ما يبدو أخلاقيًا لتبريرها، يسوق عبره من أطلقها مطالبه التي تبدو "عادلة"، والأسباب التي دفعته دفعًا إلى القيام بها، ومدى حرصه على عدم وقوعها؛ من خلال استعراض سعيه إلى تجنبها من خلال الوسائل السلمية، ثم اضطرابه "أسفًا" إلى القيام بها "لحماية" الأمة من خطر أكبر استدعى المبادرة بها. هذا بالضبط ما سعى الرئيس الروسي فلاديمير بوتين إلبالقيام به من خلال خطابه التليفزيونية المتعددة التي خاطب فيها الشعب

¹ Georgia and Moldova apply to join EU - By: Henry Foy and Sam Fleming - Financial Times - MARCH 3 2022, <https://www.ft.com/content/4bf864d8-95ae-4d95-82b3-9b2c9eee845d>

الروسي، وكذلك الأوكراني والمجتمع الدولي؛ لتأكيد أنه قرر خوض هذه الحرب مكرهاً، وأنها حرب "عادلة" لحماية روسيا من خطر جاد يهدد وجودها.

بعيداً عن الدعاية المفهومة دوافعها لدى كل من بادروا بالحروب عبر التاريخ لشرعنتها، بدا أن هناك اضطراباً روسياً في تحديد مكامن الخطر، وأسباب بدء هذه "العملية العسكرية"، وقد تعددت الأسباب الروسية، ومازالت، وربما مؤهلة لمزيد من الأسباب الإضافية عن أسباب هذه "العملية"، كما سيتم عرضه في التسلسل الزمني التالي للتصريحات:

- الكرملين: الحشود والمناورات العسكرية الروسية اعتيادية، ومخطط لها مسبقاً، وتجري على أراضيها، وهي وحدها صاحبة الحق في وضع قواتها أينما شاءت ما دامت لم تتخطَ حدود الدولة، ولا نية لنا للحرب².
- الخارجية الروسية: روسيا لن تحارب أوكرانيا، وما يحدث من ترويح عن الحرب، ما هو إلا هيستريا غربية لا أساس لها من الصحة³.
- الكرملين: روسيا تؤكد، بشكل مطلق، أنه لا نية لها لدخول حرب مع أوكرانيا إلا في حالة واحدة، وهي مبادرة سلطات كييف إلى مهاجمة جمهوريتي دونيتسكولوغانسك، اللتين نعترف بهما جزءاً لا يتجزأ من أوكرانيا، مع سخرية المتحدث باسم الكرملين من تحديد الغرب لموعد الحرب⁴.

²Россия и Беларусь проводят военные учения вблизи границ с Украиной - Радио Озоди - Февраль 10, 2022, <https://rus.ozodi.org/a/31695953.html>

³Лавров упрекнул Запад в отсутствии воспитания - Interfax - 16 февраля 2022, <https://www.interfax.ru/russia/822410>

⁴«Если украинцы нападут на Россию, не удивляйтесь, если мы ответим» - Мария Шустрова - Газета - 15 февраля 2022, <https://www.gazeta.ru/politics/2022/02/15/14536801.shtml>

- الكرمليين: روسيا، بعد فشل جميع الحلول الدبلوماسية، وعدم رد الغرب على الضمانات الأمنية التي طلبتها، ورفض سلطات كييف تطبيق اتفاقية مينسك، مضطرة إلى الاعتراف باستقلال جمهوريتي دونيتسكولوغانسك⁵.
- الكرمليين: روسيا قررت القيام بعملية عسكرية محدودة تهدف إلى حماية سكان جمهوريتي دونيتسكولوغانسك، الذين يتعرضون منذ ثماني سنوات لـ "إبادة" جماعية من "النازيين الجدد"، وسط صمت المجتمع الدولي⁶.
- الجيش الروسي: روسيا تبدأ عملية عسكرية شاملة في الأراضي الأوكرانية، تهدف إلى تحرير الشعب الأوكراني من نير "النازيين الجدد" وسيطرتهم على السلطة، ومحاربتهم للسكان من الناطقين بالروسية⁷.
- الكرمليين: روسيا تسعى إلى نزع سلاح أوكرانيا، ولكن في الوقت نفسه يطالب الرئيس بوتين هذا الجيش الذي يريد نزع سلاحه بأن ينقلب على زيلينسكي، ويتولى بنفسه السلطة؛ لعقد تفاهات معه⁸.

⁵Россия признала независимость ДНР и ЛНР: причины и последствия - РБК - 21 фев, <https://www.rbc.ru/politics/21/02/2022/6213a9339a794737fb19f793>

⁶ Специальная военная операция России в Донбассе. Хроника первого дня - Иван Жуковский, Анна Громова, Ангелина Мильченко - Газета - 24 февраля 2022, <https://www.gazeta.ru/army/2022/02/24/14570923.shtml>

⁷Путин: основные бои российской армии на Украине происходят с неонацистами - ТАСС - 25 февраля, https://tass.ru/politika/13864065?utm_source=google.com&utm_medium=organic&utm_campaign=google.com&utm_referrer=google.com

⁸ Путин призвал украинских военных брать власть в свои руки - Интерфакс - 25 февраля 2022, <https://www.interfax.ru/russia/824597>

- رغم تأكيد الخطاب الروسي الرسمي نيته تغيير السلطة⁹، لكن في الوقت نفسه أكد المتحدث باسم الكرملين أن زيلينسكي رئيس شرعي لأوكرانيا، وأن موسكو تعترف به¹⁰.
 - أخيراً، روسيا بدأت هذه العملية لنزع سلاح أوكرانيا، وتحبيدها، وتجنب سيناريو "حرب عالمية الثالثة"، من خلال نقل الغرب صواريخ تحمل رؤوساً نووية، كما ادعى رئيس وزراء أوكرانيا الأسبق ميكولا أزاروف الموالى لموسكو¹¹، أو من خلال تصنيع أوكرانيا أسلحة نووية، كما روجت موسكو مستندة إلى تلميحات الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلينسكي، في مؤتمر ميونخ للأمن والتعاون¹². وفي رواية جديدة لوزارة الدفاع الروسية، كانت أوكرانيا بصدد إنتاج أسلحة بيولوجية موجهة ضد روسيا بمساعدة أمريكية¹³.
- هذا، وما زالت المبررات تتوالى بشكل شبه يومي بشأن أسباب "العملية العسكرية الروسية" ودوافعها!

⁹ Понижая статус: Москва готова говорить с Украиной, но не с ее президентом - Ирэна Шекоян - Известия - 25 февраля 2022, <https://iz.ru/1297012/irena-shekoian/ponizhaia-status-moskva-gotova-govorit-s-ukrainoi-no-ne-ee-prezidentom>

¹⁰ Песков заявил, что Россия считает Зеленского легитимным президентом Украины - Интерфакс - 1 марта 2022, <https://www.interfax.ru/russia/825432>

¹¹ Экс-премьер Украины Азаров заявил, что НАТО пыталось начать ядерную войну против России - Сакина Нуриева - Газета - 04 марта 2022, <https://www.gazeta.ru/army/news/2022/03/04/17378791.shtml>

¹² Zelensky in Munich demands security guarantees, calls for preemptive sanctions against Russia - By: Alexander Query - The Kyiv Independent - February 19, 2022, <https://kyivindependent.com/national/zelensky-in-munich-demands-security-guarantees-calls-for-preemptive-sanctions-against-russia/>

¹³ Минобороны: На Украине разрабатывали биологическое оружие - Автор: Виктория Карташева - Парламентская газета - 06.03.2022, <https://www.pnp.ru/politics/minoborony-na-ukraine-razrabatyvali-biologicheskoe-oruzhie.html>



أدى هذا الاضطراب في تحديد أسباب وأهداف واضحة لهذه العملية العسكرية، ونفي حدوثها، ثم الادعاء بمحدوديتها قبل توسعها، إلى تأكيد الرواية الغربية، وفقدان الرواية الروسية أي مصداقية، وهو ما منح الغرب "شرعية" تطبيق عقوبات شديدة القسوة، وصلت إلى حد الحصار الكامل على روسيا، التي لم تجد متعاطفين أو حلفاء حقيقيين لها في الواقع. كذلك خلق هذا الموقف موجة واسعة من الرفض لدى صدام مسلح بين الروس والأوكرانيين في الداخل الروسي، عبّر عنه مجتمع النخبة من جميع الفئات والاتجاهات. وبدأت هذه العملية لا تحظى بشرعية يمكن حتى لحلفاء موسكو أو لأصدقائها تبريرها. شكّل هذا الاضطراب وفقدان الخطاب السياسي المتماسك بشأن دوافعها، أول معالم الفشل الإعلامي، مع ما تبعه من إقصاء شامل وكامل لجميع وسائل الإعلام الروسية، والادعاء بأن حظرها لا علاقة له بحرية الرأي والتعبير؛ لكونها- بحسب المبررات الغربية- "آلة دعائية كاذبة"، لا صحة لما يصدر عنها. في المقابل، رد الطرف الروسي على هذا الادعاء بأن الغرب يجسد "إمبراطورية الكذب".

باختصار، سجل الغرب أول نقطة انتصار له في هذه المواجهة؛ من خلال سيادة روايته الإعلامية وهيمنتها المطلقة في تشكيل الوعي العالمي العام بشأن هذه "العملية العسكرية"، أو "الحرب" كما يسميها، وبات المصدر الرئيسي لها.

لماذا لم يستقبل الأوكرانيون الروس بالورود؟

نهاية عام 2013، وبداية عام 2014، أتذكر أنني كنت أتابع بشغف الأحداث الجارية في أوكرانيا، والتظاهرات الضخمة التي تجمعت فيما يسمى "الميدان الأوروبي"، في العاصمة كييف، على وقع الخلاف السياسي الحاد في البلاد بشأن خيارات سياساتها الخارجية، وإلى أي اتجاه تميل (الاتجاه الأوروبي مقابل الاتجاه الروسي)، في ذلك الوقت تحدثت مع أصدقاء من مدينة «دنيبرو»، وهي ثالث أكبر مدن أوكرانيا، عن عزمهم التوجه إلى كييف، من خلال أسطول ضخ من الحافلات لمساندة الرئيس الأسبق فيكتور يانوكوفيتش، وتأكيد خيارهم الروسي في علاقات أوكرانيا الخارجية، وقد تكرر الأمر ذاته مع الأصدقاء في «خاركوف» بالروسية، أو «خاركيف» بالأوكرانية، وأوديسا، وباقي المدن الشرقية والجنوبية. لم تتمكن هذه الحافلات من الوصول إلى كييف بعدما قطعت الجماعات القومية المتطرفة الطرق المؤدية إلى العاصمة، ولو وصلت لربما تغير المشهد تمامًا في أوكرانيا، وظهر أن المؤيدين للخيار الأوروبي ليسوا هم الأغلبية كما بدا. نقطة أخرى سجلتها الولايات المتحدة على روسيا، من خلال النجاح في الترتيب لانقلاب أنيق، بدا في شكل "ثورة" شعبية استجابت "لمطالب" الجماهير من أجل "الحرية والديمقراطية"، والاندماج مع "العالم الحر".



مساعدة وزيرة الخارجية الأمريكية للشؤون الأوروبية والأوراسية، فيكتوريا نولاند، تقدم الطعام للنشطاء المؤيدين للاتحاد الأوروبي، وإلى جانبها سفير الولايات المتحدة في أوكرانيا جيفري بيات - المصدر (Andrew Kravchenko/AP)

بعد استيلاء "ثور" الميدان على السلطة، انطلقت التظاهرات في جميع أنحاء الشرق والجنوب الأوكراني، مركزي ثقل الاقتصاد والسكان والناطقين بالروسية، وذوي العلاقات العميقة الجذور مع موسكو، وطالبوا حال أصرت السلطة الجديدة في كييف على الخيار الأوروبي أن تطبق الفيدرالية في مناطقهم ليصبح لديهم الحق في تحديد شكل علاقاتهم الاقتصادية والثقافية المرتبطة عضوياً مع روسيا لا أوروبا، وطالب بعضهم بالانفصال والانضمام إلى الاتحاد الروسي، ورداً على ذلك قامت الجماعات القومية الأوكرانية بحملة إرهاب واسعة النطاق لسكان كلتا المنطقتين، وشكلت عدة ميليشيات عسكرية، قتلت حرقاً في يوم واحد، وفي مدينة واحدة هي أوديسا في الجنوب، ما بين (31) حسب تقرير

شبكة مراسلي فاينانشال تايمز¹⁴، أو (42) حسب تقرير هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)¹⁵، أو (48)، منهم (7) نساء، حسب تقرير صحيفة راسيسكيا غازيتا الروسية¹⁶، بعدما حاصرت متظاهرين مطالبين بعلاقة مميزة مع روسيا، وتطبيق الفيدرالية في مبنى تجمع النقابات العمالية في المدينة، وأضرمت النار في المبنى، ثم توجهت بعد ذلك إلى مدينة سلافيانسك في الشرق الأوكراني؛ لبدء عملية عسكرية ضد الموالين لموسكو، راح ضحيتها العشرات، تبع ذلك خروجهم في مسيرات بالمشاعل النازية والسيوف في العاصمة كييف، حاملين صور ستيفان بانديرا، زعيم منظمة القوميين الأوكرانيين التي تعاونت مع الجيش النازي، مكتوبًا عليها بالأوكرانية «ناستوياتشيهاروي»، أي "بطلنا الحقيقي"؛ لاستفزاز السكان الناطقين بالروسية، وتذكيرهم بالمصير الذي ينتظرهم من قتل وذبح كما سبق أن قامت به منظمة القوميين الأوكرانيين بعد الاجتياح النازي لأراضي أوكرانيا.

¹⁴Violence in Odessa leaves dozens dead - By: John Reed in Donetsk, Roman Olearchyk in Kiev and Courtney Weaver in Moscow - Financial Times - MAY 3 2014, <https://www.ft.com/content/466d9bba-d1c1-11e3-8b5b-00144feabdc0>

¹⁵How did Odessa's fire happen? - BBC - 6 May 2014, <https://www.bbc.com/news/world-europe-27275383>

¹⁶Опубликован полный список жертв "одесской бойни" 2 мая - НАТАЛЬЯ ГЛЕБОВА - Российская газета - 15.05.2014, <https://rg.ru/2014/05/15/spisok-site-anons.html>



مسيرة للقوميين الأوكرانيين في شوارع كييف عام 2014

لم تكن هذه المسيرات مجرد استفزاز لموسكو وحسب؛ بل كانت استفزازاً لكل الناطقين بالروسية، والتيارات اليسارية، واليهود، والروسينيين (مجموعة عرقية سلافية شرقية)، والأوكرانيين من ذوي الأصول البولندية والتشيكية والسلوفاكية والرومانية والمجرية والتيهاني (التسمية الأوكرانية "للغجر" أو "الروما") الذين تعرضوا لمذابح جماعية على يد منظمة بانديرا، قَدَّر المؤرخون عدد من قُتل فيها بأكثر من نصف مليون قتيل، حسب البحث المدعوم بالوثائق للمؤرخ البولندي الشهير غريزاغورسموتيك (Grzegorz Motyka)، الأستاذ في معهد الدراسات السياسية التابع للأكاديمية البولندية للعلوم، بعنوان: "دور القومية الأوكرانية خلال الحرب العالمية الثانية ومشاركة أعضائها في

سياسات الإبادة النازية"، وكذلك دراسة المؤرخ الأمريكي جون بول هيمكا (John-Paul Himka)، أستاذ الدراسات السلافية في جامعة ميشيغان، بعنوان: "الأوكرانيون واليهود والمحرقه.. ذكريات متباينة"، وغيرهما من المؤرخين الأوكرانيين¹⁷.

كانت أوكرانيا في حالة حرب أهلية فعليًا، وكان المواطنون في حالة فزع من الظاهرة "النازية"، ليس القاطنون على الضفة اليمنى من نهر دنيبر فقط، ولكن جميع الأقليات الأخرى، بمن فيهم اليهود. وقد حذرت حتى التيارات القومية المؤيدة للخيار الأوروبي في أوكرانيا، من أن توسع ظاهرة القوميين المتطرفين، أو "النازيين الجدد" حسب التسمية الروسية، يمنح روسيا جميع المبررات للقيام بعملية اجتياح واسعة النطاق لأراضي أوكرانيا، وسينظر إليها السكان في الشرق والجنوب على أنها "المخلص"، وكذلك "الحامي" لهم. في ذلك الوقت إذا قرر بوتين الاستعانة بمقررات «معاهدة الصداقة والتعاون والشراكة بين الاتحاد الروسي وأوكرانيا»، التي دخلت حيز التنفيذ منذ أبريل (نيسان) 1999، عبر تقدم الرئيس الأسبق فيكتور يانوكوفيتش بطلب تدخل القوات الروسية لحماية "الشرعية"، وكانت الشرطة والجيش الأوكرانيان في ذلك الوقت مؤيدين له في مجملهما، لقبول التدخل الروسي بالورود حقًا، ولفرض سيطرته دون رصاصة واحدة على جميع مناطق الشرق والجنوب بكاملها كما حدث في دخوله شبه جزيرة القرم، وهو ما يفسر هذا الاستحواذ السهل عليها في تلك الأيام. لكن أجواء عام 2014، وتلك الفرصة التي "فوتها" بوتين، حسب بعض المفكرين الروس، لم تكن شبيهة - بأي شكل من الأشكال - بأجواء عام 2022.

¹⁷On Ukrainian nationalistic underground during the Second World War and the participation of its members in Nazi politics of the extermination of the Jews see GrzegorzMotyka, Ukraińskapartyzantka 1942-1960. DziałalnośćOrganizacjiUkraińskichNacjonalistów i UkraińskiejPowstanczejArmii. Warszawa, 2006; Per Anders Rudling, The OUN, the UPA, and the Holocaust: A Study in the Manufacturing of Historical Myths, The Carl Beck Papers in Russian and East European Studies, 2011, No2107. See also: John-Paul Himka, Ukrainians, Jews and the Holocaust. Divergent Memories. Saskatoon, 2009. Recent attempt of Bandera`s biography (GrzegorzRossolinski-Liebe, Stepan Bandera: The Life and Afterlife of a Ukrainian Nationalist: Fascism, Genocide, and Cult. Stuttgart, 2014) already caused broad discussion.



متظاهرون أوكرانيون في شرق البلاد يؤيدون لموسكو يرفعون الأعلام الروسية على المباني الحكومية الأوكرانية عام 2014

مرة ثالثة أو رابعة تتفوق الولايات المتحدة، وتسجل نقاطاً إضافية على حساب روسيا، وتحتوي الموجة المؤيدة للتكامل مع روسيا من خلال اتفاقية مينسك في الخامس من سبتمبر (أيلول) 2014، التي بدت وكأنها في صالح موسكو، ولكنها كانت تهدف إلى تجميد الصراع إلى حين خلق تغيير ثقافي جوهري في الداخل الأوكراني.

بدأت عملية الفصل التاريخي، وخلق اغتراب ثقافي، وصولاً إلى العداء بين روسيا وأوكرانيا منذ استقلال الأخيرة، وقد بدأ هذه العملية على استحياء الرئيس الأول لأوكرانيا ليونيد كرافتشوك (1991-1994)، وتوقفت جزئياً في عهد الرئيس الثاني ليونيد كوتشما (1994-2005)، الذي ركز على بناء مؤسسات الدولة والاقتصاد الذي كان يعاني حالة انهيار، وتساعدت مع تولي الرئيس الثالث فيكتور يوشتشينكو (2005-2010) الذي جاء على إثر

"الثورة البرتقالية" عام 2004، وفي هذه الفترة تصاعد المد القومي وصولاً إلى تكريمه شخصية ستيبان بانديرا، ومنحه لقب "بطل أوكرانيا القومي"، وهو ما أدى إلى احتجاجات واسعة من الناطقين بالروسية واليهود، وباقي القوميات الأخرى، وأسهم - إلى حد كبير - في وصول الرئيس الرابع فيكتور يانوكوفيتش (2010-2014) إلى السلطة، على الرغم من كونه لصاً سابقاً أُدين بالسرقة عام 1967، وحُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات، ولديه سجل سيئ السمعة كغالبية النخبة السياسية الأوكرانية، ولكن لأنه من الناطقين بالروسية، وبسبب استفزازات القوميين المتطرفين؛ انتخبته الكتلة الناطقة بالروسية وبقية الأقليات، وفور توليه السلطة ألغى مرسوم اعتبار بانديرا "بطلاً قومياً" كما وعد في أثناء الانتخابات، ولكن بعد عام 2014، قررت السلطة الجديدة استعادة هذا المرسوم، ونصب عدة تماثيل له ولأقرانه من القوميين في الميادين العامة، وسط حالة من الانقسامات التي لا تنتهي في هذا البلد.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف تغير المزاج الشعبي العام في أوكرانيا عامة، ومنطقة الشرق خاصة، على الرغم مما يجمع موسكو بهذه المنطقة من علاقة إثنية وقومية ولغوية ودينية واقتصادية وسياسية وتاريخية مشتركة؟

أسباب كثيرة يطول شرحها، ولكن يمكن ذكر أبرزها في العناصر التالية:

- بدأت عملية خلق اغتراب ثقافي، وفصل تاريخي داخل أوكرانيا تجاه روسيا، بشكل نشط، وبدعم غربي، بالتحالف مع المنظمات القومية منذ عقدين، ونشطت في الفترة من عام 2014 إلى بدء العملية العسكرية، بشكل كبير، وسط غياب تام لأي تأثير روسي، أو محاولة لمواجهة ثقافية مماثلة لهذه الموجة، واعتماد شبه حصري على القوة الخشنة عبر العقوبات الاقتصادية، ودعم المتمردين، والتصريحات العنيفة تجاه أوكرانيا وتاريخها وكيانيتها التي حملت بعض التعالي، وهو ما أيقظ الشعور القومي العام لدى عامة الأوكرانيين.

- حلفاء موسكو في أوكرانيا عبارة عن مجموعة من الأوليغارشية الفاسدة والمكروهة من جانب الشعب، ولم تسعَ إلى عقد أي تحالفات مع جهات موثوق بها تتمتع بسمعة طيبة— ببساطة كما أراد الغرب، أتباع لا حلفاء في أوكرانيا. فعلت موسكو الشيء نفسه، إلا أن التفوق الأمريكي كان نابغًا من وهج النموذج الذي بشرت به الأوكرانيين، بغض النظر عن كونه حقيقة أو خيالًا، مقابل نموذج رديء لدى موسكو، وهو ما أسهم في تبييض سمعة حلفاء واشنطن والغرب عامة.
- شاهد الأوكرانيون التجربة الروسية عمليًا في المناطق التي سيطرت عليها من أوكرانيا، فلم يجدوا تغييرًا يذكر لأوضاع سكان شبه جزيرة القرم. أما سكان إقليم الدونباس، الذي سيطر حلفاء موسكو على نحو 40% من أراضيه، فكانت حياتهم عبارة عن بؤس، ولم تستغل موسكو الفرصة لخلق حياة أفضل تحفز الأوكرانيين الموالين لها بطبيعتهم على التمسك بالعلاقة معها.
- أدت الحرب في الدونباس، والاعتقالات للمعارضين في القرم، ومشاهد القتل والدمار في المناطق المتنازع عليها، إلى نفور عام لدى بقية الأوكرانيين الذين يعانون بؤسًا اقتصاديًا بالفعل، لكنهم يتمتعون بشيء من الحرية والاستقرار؛ فكان الخيار الأخير أفضل لهم، ومقدمًا على قضايا الهوية والروابط التاريخية مع موسكو.
- وسعت موسكو عقوباتها الاقتصادية تجاه أوكرانيا، التي كان آخرها في شهر يوليو (تموز) عام 2021¹⁸، والتي أضرت- بشكل رئيسي- بسكان الشرق المرتبطين بها تاريخيًا واقتصاديًا، وبدلاً من تدعيم هذه العلاقة معهم لخلق حافز إضافي مرتبط بالمصلحة اليومية للمواطنين، عاقبتهم على تصرفات حكومة كييف، وبدا خطابها متناقداً؛ فمن ناحية، تتحدث موسكو عن علاقة "الأخوة" السلافية الشرقية،

¹⁸Раскрыт список запрещенных для ввоза в Россию с Украины продуктов - Лента - 3 июля 2021, <https://lenta.ru/news/2021/07/03/zapret/>

والرابطة التاريخية بين الروس والأوكرانيين، وأنها تفرق-بوضوح- بين الشعب وما تسميها "سلطة" كييف، ولكنها عملياً تعاقب السكان المحليين.

● في الوقت الذي نشطت فيه الدعاية الروسية، وفضائياتها الناطقة بعدة لغات مختلفة لمخاطبة شعوب العالم، ظلت ضعيفة وعاجزة عن مخاطبة الشعب الأقرب والأهم بجوارها في أوكرانيا. صحيح أن السلطات الأوكرانية أغلقت جميع الفضائيات الناطقة بالروسية في البلاد، واتخذت عدة قوانين ترقى إلى مرتبة قوانين نورمبرغ العنصرية النازية تجاه كل ما هو روسي، لكن موسكو في المقابل استغلت هذه الأمر في الدعاية ضد النظام الحاكم، دون الاهتمام بمخاطبة الشعب. في كل الأحوال، يبدو أن فكرة "الشعب" نفسها ودوره لا قيمة لها لدى مخططي السياسة الروسية.

● شهدت روسيا، في السنوات العشر الأخيرة، حالة من التضييق الواسع على الحريات، وسط تراجع اقتصادي، وغياب لأي نموذج جاذب. مع مرور الوقت، وبسبب التراكمات السابقة، والدعاية الغربية النشطة والفعالة، أصبح لدى الأوكرانيين من الناطقين بالروسية في الشرق، نفور، وربما كراهية لهذا "النموذج" الروسي، لا من روسيا أو شعبها، فلا وجود لنموذج سياسي، أو نجاح اقتصادي، أو وهج فكري وثقافي، أو تطور ما تكنولوجي واجتماعي في روسيا، والعقوبات الاقتصادية الروسية أضرت بهم، وكان من الطبيعي عند عقد المقارنة أن ترجح كفة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، وأن تجد الدعاية المناهضة لروسيا من القوميين المتطرفين صدى لها حتى وسط الناطقين بالروسية، التي روجت لضرورة انضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو أولاً، ليقبل الأوروبيون ثانياً عضويتها في الاتحاد الأوروبي، بعد ضمان حمايتها من روسيا؛ لبناء دولة "مستقلة". ووفق هذه المعادلة، رأى كثير من السكان غير المستقطبين أن الانضمام إلى الناتو ربما يشكل عامل استقرار لأوكرانيا.

● سبب آخر لا يقل أهمية عما سبق ، عندما انطلقت موجة التأييد للعلاقة الخاصة مع روسيا في عام 2014، وتطويقها عبر اتفاقية مينسك، سحقت السلطات الأوكرانية جميع المؤيدين لموسكو، وجردتهم من أملاكهم ومناصبهم، وزجت بهم في السجون بتهمة "الخيانة العظمى"، ولم تقدم موسكو دعماً لهم خلافاً لبيانات الشجب والإدانة. وقد أدت هذه التجربة دوراً كبيراً في حذر سكان الشرق والجنوب من أي اندفاع نحو تأييد روسيا؛ خشية الانتقام فيما بعد إذا توصلت إلى اتفاق وسحبت قواتها.

لتأكيد أن النفور أو العداء للنموذج، لا لروسيا، أظهر استطلاع للرأي أجرته مجموعة علم الاجتماع (RATING) الأوكرانية المستقلة، في يوليو (تموز) 2021، أن "55%" من الشعب الأوكراني يعتقدون أنهم والروس شعب واحد"، وأظهر في الاستطلاع الانقسام على أساس مناطقي وعرقي وثقافي في البلاد، حيث رأى "60%" من سكان شرق أوكرانيا وجنوبها" الذين تشكل مناطقهم الحزام الحدودي مع روسيا "أنهم والروس شعب واحد، وأنه لا وجود لروابط بينهم وبين الغرب، كما أكدوا تبعيتهم للكنيسة الأوكرانية الأرثوذكسية التابعة لبطريركية موسكو"¹⁹. وقد أشار بيان «جمعية ضباط عموم روسيا»، وهو تجمع لكبار جنرالات الجيش السوفييتي والروسي من المحاربين القدامى، ويترأسه أيقونة الفكر القومي الفريق أول ليونيد إيفاشوف، الذي وقع على البيان، إلى أن الأزمة الروسية مع أوكرانيا يستغلها الخارج بسبب أزمة روسية داخلية في الأساس، وقد جاء في البيان من بين أشياء أخرى: "ينبغي أن تظل أوكرانيا جارة صديقة لروسيا، وكان من الأولى أن يكون لدى النموذج الروسي كدولة ونظام حكم الجاذبية الكافية لتشعر أوكرانيا بأن مصلحتها تكمن في التحالف مع موسكو، لكن الاتحاد الروسي لم يفعل ذلك، ونموذج التنمية الخاص به، وآلية السياسة الخارجية للتعاون الدولي تصد جميع الجيران تقريباً عنه، وليس فقط

¹⁹Опрос: 41% украинцев считают себя единым народом с россиянами, 55% с этим не согласны – ВВС – 27 июля 2021, <https://www.bbc.com/russian/news-57984025>

أوكرانيا. لا يمكن اجبار الآخرين على (حب) الاتحاد الروسي وقيادته عبر الإنذار والتهديدات باستخدام القوة"²⁰.

أدت العوامل السابقة وغيرها، إلى تولد شعور بالذاتية الوطنية الأوكرانية لدى سكان شرق أوكرانيا وجنوبها من الناطقين بالروسية، ورغبة في الخلاص من هذه الثنائية التي قسمت البلاد بين ولاء شرقي لموسكو وغربي للاتحاد الأوروبي وأمريكا، وشكل بدء التحرك العسكري الروسي، وصولاً إلى مدنها، عامل تحفيز لحمل بعضهم السلاح، ورفض استسلامهم، بدلاً من استقبال الجيش الروسي بالورود، وما حفزهم على ذلك الخطاب الروسي المضطرب عن أسباب هذه الحملة العسكرية ودوافعها، وشعورهم بأن الحكومة الأوكرانية لم تقم باستفزاز خطير يستدعي شن هذه الحرب. كما قال الطبيب الأوكراني الشهير يفغيني كوماروفسكي، الذي تباع كتبه وإرشاداته في روسيا أكثر منها في أوكرانيا: "أنا ناطق بالروسية ولا أتحدث سواها، وولدت في مدينة أوكرانية كل سكانها من الناطقين بالروسية (خاركوف)، وكنت ومازلت معارضاً للقوميين المتطرفين، والآن تتعرض مدينتي للقصف بذريعة حماية المتحدثين بالروسية، ومواجهة النازيين الجدد!"²¹.

لم تقدم العملية العسكرية الروسية أسباباً مقنعة لسكان الشرق الأوكراني بعدالتها، أو أنها لصالحهم؛ إذ كيف يمكن - حسب قول أحد النشطاء- أن تدعي أنك تريد "حماية الناطقين بالروسية من خطر محتمل من خلال تعريضهم لخطر حتمي عبر عملية عسكرية". كما أن هؤلاء السكان ليسوا على استعداد للتضحية بأنفسهم لأجل "تأديب موسكو للغرب عبر بوابة أوكرانيا؛ لعدم حصولها على ضمانات أمنية، وسعيها إلى استعادة العدالة المفقودة في

²⁰Обращение Общероссийского офицерского собрания к президенту и гражданам Российской Федерации - MyCorp - 31 Январь 2022, http://ooc.su/news/obrashhenie_obsheerossijskogo_oficerskogo_sobranija_k_prezidentu_i_grazhdanam_rossijskoj_federacii/2022-01-31-79

²¹ Что там у вас делается? Доктор Комаровский отвечает на вопросы - Евгений Комаровский - 26 февраля 2022 г. <https://www.youtube.com/watch?v=akKgrR77rbo&t=1379s>

العالم من خلال إنهاء الأحادية القطبية، وخلق نظام عالمي جديد متعدد الأقطاب، يدفع الأوكرانيون وحدهم ثمن قيامه"، كما يقول ناشط أوكراني آخر.

فرضية "التعثر" العسكري الروسي

تبدو فرضية "التعثر" العسكري الروسي قائمة، في جزء كبير منها، على الدعاية الغربية-الأوكرانية، لشد أزر الأخيرة للمقاومة وعدم الاستسلام كما كانت موسكو تأمل، وفي جانب آخر لعدم استعداد الجيش الروسي-فيما يبدو- لخوض هذه الحرب في التوقيت الذي بدأت فيه، وربما لذلك ظهرت بعض المشكلات اللوجستية في الأسبوع الأول من العملية.

أوكرانيا بلد جار لروسيا، يمثل قيمة جيوسياسية هي الأعلى في منظومة أمنها القومي، وهناك مشكلات وصدامات عسكرية بين الطرفين منذ عام 2014، وبكل تأكيد لدى الجيش الروسي عدة مخططات وسيناريوهات مختلفة لأي تدخل عسكري قد تفرضه الضرورة، ولا يبدو من المنطق- بأي شكل من الأشكال- عدم وجود تصور لدى العسكريين الروس عن هذا البلد المحفوظ بالنسبة لهم، بتضاريسه وتركيبته السكانية، وخرائط توزيع بنيته التحتية، تمامًا كروسيا.

الأرجح أن قرار العملية العسكرية بالفعل قد اتخذ على عجل، ولم يكن مخططاً له، أو على أقل تقدير لم تكن هناك نية أن يتم في هذا التوقيت، ويبقى السؤال عن الأسباب التي دعت الكرملين إلى اتخاذ هذا القرار محل جدل ولغز، حتى لأكثر المراقبين والمحللين الروس قرباً من مراكز صنع القرار. وهناك عدة نظريات في الداخل الروسي عن أسباب هذا القرار ودوافعه، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

● وجود معلومات جادة عن نقل مرتقب لرؤوس نووية غربية إلى أوكرانيا التي تمتلك بالفعل بنية تحتية لصناعة الصواريخ يمكنها حمل هذه الرؤوس ، وهو ما يخلق تغييراً في ميزان القوى بين الطرفين ، ويقوّي مركز كييف التفاوضي التي يقف الغرب خلفها ، ويضع موسكو في مركز ضعف ، غير قادرة على فرض أي من مطالبها. لكن الجدل هنا يدور حول دقة هذه المعلومات: "هل حقاً من مصادر موثوق بها، أم مصادر مدسوسة تم الدفع بها من جانب الغرب بهدف توريث روسيا، أم من مصادر أوكرانية أُقصيت من السلطة بعد عام 2014، وتطمح إلى العودة من جديد للحكم على متون الدبابات الروسية، فعظمت من شأن هذه الأخطار، وقللت من شأن وجود أي مقاومة؛ لدفع روسيا إلى القيام بهذه العملية؟"—أسئلة كثيرة، ربما نجد لها إجابات مع الوقت.

● شعور الرئيس بوتين بالإهانة الشخصية عبر مبالغة الإعلام الأوكراني والروسي المعارض في السخرية منه بعد كل هذه الحشود والمناورات العسكرية، وتعالى صوت الكرملين للمطالبة بضمانات أمنية في صيغة "الإنذار" للغرب، وعدم قبول الأخير أيّاً منها، وهو ما وضعه في موقف صعب؛ إن تراجع عن التدخل العسكري ستسقط هيئته تماماً، وتفقد هذه المناورات والحشود قدرتها على الردع، ويظهر الغرب وكأنه من حمى أوكرانيا من غزو مفترض نتيجة الضغوط التي مارسها على الكرملين، وعلى جانب شخصي سيبدو الممثل الكوميدي الذي يوصف بأنه "مهرج" في روسيا قد انتصر في معركة الإرادات على بوتين رجل الاستخبارات السوفيتية السابقة، والقائد الكبير الذي يحكم منذ 20 سنة، وهو ما دعا الأخير إلى اتخاذ هذا القرار على عجل، لكنها تبدو فرضية ضعيفة.

● هناك فرضية تحدث بعض المعارضين الروس عنها، وكذلك بيان «جمعية ضباط عموم روسيا»، بأن الدوافع الداخلية هي للتغطية على سوء الأوضاع الاقتصادية، وقابلية الشارع الروسي للانفجار وصولاً إلى ثورة شعبية، وطموحات الأوليغارشية

المرتبطة بالكرملين في السيطرة على موارد أوكرانيا لتضيفها إلى ما لديها من موارد في روسيا من خلال تحالفها مع أطراف أوكرانية مماثلة. كل هذه الأسباب دفعت باتجاه هذا القرار، ولكن تبدو هذه الفرضية غير واقعية، وإذا كانت حقيقية لما كان هناك داعٍ إلى توسيع نطاق العمليات وصولاً إلى العاصمة كييف، وحتى لو صدقت، فهي جزء بسيط من ضمن عدة أسباب أخرى أكثر أهمية.

- انعزال الكرملين عن الواقع، ووجود فئة محدودة قادرة على التواصل المباشر مع الرئيس، وترويجها لنظرية استقبال الأوكرانيين للجيش الروسي على أنهم "محررون"، وأن عملية عسكرية خاطفة لا تتطلب استعدادات مسبقة مكثفة، ستؤدي إلى هروب القيادة الأوكرانية، وتفكك النظام وسقوطه دون مقاومة، واستسلام المدن بسهولة نتيجة غياب السلطة، وهو سيناريو مرجح إلى حد كبير.
- نظرية أخيرة تبدو منطقية، ترى أن أي عملية روسية تقتصر على إقليم الدونباس فقط، ستكون أشبه بحرب استنزاف طويلة الأمد، يصعب على روسيا حسمها بسهولة، حيث سيهدد الغرب أوكرانيا بشكل مستمر بجميع الأسلحة الحديثة، والخبراء المتعاونين لإدارة المواجهة؛ وعليه، كان لابد من عملية شاملة لغلق جميع المنافذ البحرية، والجوية، والبرية، وتدمير البنية التحتية العسكرية للجيش الأوكراني.

على كل الأحوال، استعداد الجيش الروسي توازنه، وبدا واضحاً أنه قد امتلك زمام المبادرة بعد فترة من بطء العمليات نتيجة مشكلات لوجستية، وبدأ يسيطر بشكل ممنهج، وفق خطة معدة سلفاً، بشكل يبدو دقيقاً، على المدن الجنوبية على البحرين الأسود وآزوف؛ لعزل أوكرانيا تماماً عن أي منافذ بحرية، وإنهاك الجيش الأوكراني والميليشيات القومية على عدة جبهات بشكل متزامن، وفصل هذه القوات لمنع تواصلها، وتطوير المدن، وفرض حصار عليها، مع وجود ممرات آمنة تسمح بخروج السكان، وعزل المقاتلين، سواء أكانوا

من الجيش، أممن المتطوعين، أم من كتائب القوميين المتشددين، حتى يستسلموا، أو يتخلص منهم تحت ادعاء أنهم من "النازيين الجدد"؛ ولذلك يشدد الكرملين والجيش في كل بياناته على أن المقاومين له هم من هذه الفصائل "المتطرفة" حسب وصفه.

يبدو سقوط كييف، وباقي المدن الكبرى في الشرق والجنوب، مسألة وقت، ورغم كل ما يتردد عن "بطولة" المقاومة الأوكرانية، فإن قدراتها تظل محدودة في ظل كثافة النيران لدى الجيش الروسي، وخروج السكان، وهو ما يسمح بتوجيه ضربات قوية وشاملة دون الخشية من وقوع ضحايا مدنيين، وفقدان المقاومين لأي غطاء جوي أو خط إمداد وتموين. كما أن من الواضح أن الإستراتيجية العسكرية الروسية تتجنب اقتحام المدن؛ حتى لا تسقط في فخ حروب الشوارع.

في النهاية، الجيش الروسي لديه خبرات متراكمة في الحروب الهجينة، وحروب المدن الكبرى، وتجارب استفاد منها في أفغانستان، وجورجيا، ومولدوفا، والشيشان، وبلدان وسط آسيا، وسوريا، وليبيا، وليس من الحكمة التقليل من شأن قدراته في ظل عملية عسكرية ليست بالسهلة، وفي أراضٍ سهلية ممتدة، وعدد سكان يزيد على الأربعين مليون نسمة، وقيود تحد من قدراته على استخدام جميع ما لديه من نيران كثيفة نتيجة الخشية من سقوط ضحايا من المدنيين والأطفال، وهو ما يعرضه لهجمة إعلامية أكثر شراسة من الحالية، ولن تكون مقبولة في الداخل الروسي. كما أنه ستنتهي إلى الأبد، وبشكل لا رجعة فيه، أي تحالفات لموسكو مع أطراف أوكرانية داخلية ستكون بحاجة إليها إذا قررت تشكيل أي حكومة انتقالية.

أهداف العملية العسكرية الروسية

يمكن القول إن أهداف العملية العسكرية الروسية باتت أكثر وضوحًا بعد حالة من التخبط والاضطراب والغموض منذ بدئها، بين خطابات الكرملين المتغيرة، والواقع الفعلي على الأرض. هذه الأهداف منها ما هو معلن بالفعل، وبعضها الآخر لم يتم الإعلان صراحةً عنه، وهو ما يمكن إجماله في النقاط التالية:

- نزع سلاح أوكرانيا، والمقصود من هذه العبارة- فيما يبدو- أن روسيا تود القضاء على كل البنية التحتية العسكرية التي بناها الغرب واستثمر فيها في الفترة من عام 2014 إلى الآن، و"تصفير" القدرات العسكرية الأوكرانية، بما في ذلك ما ورثته من التركة السوفيتية، أو قامت بتصنيعه من خلال ما لديها من مصانع عسكرية تنتمي أيضًا إلى تلك الحقبة.
- ضمان حياد أوكرانيا، وهو ما يعني إلزام الغرب - كما يأمل الكرملين- والحديث هنا عن (الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وحلف شمال الأطلسي)، إلى جانب الحكومة الأوكرانية، بتوقيع معاهدة ملزمة، لارجعة فيها، بأن أوكرانيا لن تكون أبدًا عضوًا في حلف شمال الأطلسي، ولن تدخل في أي شكل من أشكال التحالفات العسكرية مع أي جهة غربية، ووضع قيود على عدد وطبيعة تسليح جيشها.
- القضاء على "النازيين الجدد"، وهو توصيف مطاط، قد يشمل بالفعل بعض الميليشيات التابعة لمنظمات القوميين الأوكرانيين، مثل ميليشيا «آزوف» التابعة لحزب «ناتسيونالنيكوروبوس»، أي "الفيلق الوطني"، وميليشيا «باتريوت أوكرايني»، أي "الوطنيين الأوكرانيين"، وميليشيا «برافيسيكاتور»، أي "القطاع الأيمن"، وغيرها من المنظمات القومية، التي ترفع شعار "المجد للأبطال"، وعلى جميع "الأوغاد الروس قبول السلطة القومية الأوكرانية بشكل غير مشروط"، لتحقيق هدفنا في بناء "أمة عرقية متجانسة في دولة قومية واحدة" كما نادى بذلك

"الأوكرانيون العظماء، ستيبانانديرا، ورومان شوخيتش"، وهما من قادة القوميين الأوكرانيين المتعاونين مع الجيش النازي، وهذه الحركات لها ميليشيات مسلحة شديدة الشراسة، ويقاوم معها مقاتلون من النازيين الجدد في أوروبا، وبالتحديد من السويد، وبقية البلدان الإسكندنافية وألمانيا، شاركوا في قتال الموالين لروسيا في إقليم الدونباس منذ عام 2014، وقد أشارت إليهم الصحفية دينا نيومان (Dina Newman) في تقرير موسع لصالح هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)²²، كما أكد الصحفي الأمريكي آلان ريب (Allan Ripp)، في تحقيق خاص على إن بي سي نيوز (NBC News)، بعنوان "مشكلة النازيين في أوكرانيا"، وجود مشكلة "نازية" عميقة الجذور في الداخل الأوكراني، وأن معارضة السياسات الروسية لا بد ألا تعمي الغرب عنها²³. لكن في المقابل، يبدو أن التعريف الروسي للنازيين الجدد أخذ في الاتساع، ويشمل كل من لديهم عدا، أو كراهية، أو رفض لأي علاقة خاصة مع روسيا، ويدعمون انضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو، والاتحاد الأوروبي.

● السيطرة على جميع المفاعلات النووية الأوكرانية، التي يقدر عددها بـ (15) مفاعلاً في منطقة شرق أوكرانيا من التركة السوفيتية²⁴، وربما تسعى روسيا إلى تفكيكها بالكامل، تحت ذريعة ضمان عدم قدرة أوكرانيا على تصنيع أي أسلحة نووية مستقبلاً، ولكي تعتمد على الطاقة القادمة من روسيا بشكل حصري، وهو ما يضمن تبعية قرارها السياسي لموسكو.

● تفكيك أي معامل بيولوجية، أو قادرة على تصنيع أسلحة كيميائية.

²²Что делает шведский снайпер в украинском батальоне - Дина Ньюман - Дина Ньюман - BBC - 16 июля 2014,

https://www.bbc.com/russian/international/2014/07/140716_ukraine_swedish_sniper

²³Ukraine's Nazi problem is real, even if Putin's 'denazification' claim isn't - By: Allan Ripp - NBC News - March 5, 2022, <https://www.nbcnews.com/think/opinion/ukraine-has-nazi-problem-vladimir-putin-s-denazification-claim-war-ncna1290946>

²⁴Nuclear Power in Ukraine - World Nuclear Association Content, <https://world-nuclear.org/information-library/country-profiles/countries-t-z/ukraine.aspx>

- السيطرة على جميع لوجستيات الدولة الأوكرانية، ووضعها تحت سيطرة القوات الروسية، ويشمل ذلك الطرق والجسور، ومحطات المياه والكهرباء، ووسائل البث التلفزيوني والاتصالات.
- فتح طريق بري يربط الأراضي الروسية بإقليم الدونباس، ومنه إلى شبه جزيرة القرم، غير المرتبطة بحدود برية مع روسيا، وعانى أهلها مما يشبه الحصار نتيجة تحكم أوكرانيا في طرق عبور المياه وخطوط الكهرباء والطاقة إليها، وقطعها المياه عن السكان بشكل متكرر، والتكلفة العالية للوسائل البديلة عن طريق روسيا.
- السيطرة على بحر آزوف، وتحويله إلى بحيرة روسية، وعلى جميع منافذ أوكرانيا على البحر الأسود، وهو ما يعني عزلتها تمامًا عن طريق البحر؛ ولذلك تشهد مدن ماريوبول، وخيرسون، وأوديسا، قتالاً شرساً بين الطرفين للسيطرة عليها، ثم وضع قواعد روسية في هذه المنافذ البحرية لتصبح لروسيا الكلمة العليا في البحر الأسود.
- فتح طريق بري يربط روسيا بأراضي المتمردين المواليين لها في مولدوفا؛ لمواجهة أي جبهة قد تُفتَح من هذا الاتجاه، والسيطرة الكاملة على الحدود الأوكرانية-المولدوافية.
- استعادة عمل مصانع محركات الطيران والسفن التي تم تأسيسها منذ الحقبة السوفيتية، لخلق تكامل بين جمهورياته، وكانت تمثل إحدى وسائل التعاون الكبير بين البلدين بعد عام 1991، ويعتمد عليها الجيش الروسي اعتماداً كبيراً، إلا أن هذا التعاون توقف بسبب رفض أوكرانيا، منذ عام 2014، الالتزام بالتوريدات المتفق عليها.
- استغلال الميزة النسبية التي تمتلكها روسيا، وهي القوة العسكرية التي طورتها تطويراً كبيراً خلال السنوات العشر الماضية، في إبراز عضلاتها وقوتها أمام الغرب، وتأكيد عدم قدرة الأخير على مواجهتها عسكرياً. واكتفائه بالعقوبات الاقتصادية.

ووفق تصور موسكو، فإن هذه القوة ستمكنها من الحصول على مكانة إقليمية، ثم عالمية تطمح إليها. أما أوكرانيا فهي أشبه ما تكون بالأرض التي يتم عليها الآن تلك المناورة العسكرية الحية، وتطبيق عملي للمصير المنتظر لأي بلد في محيطها يسعى إلى عضوية الناتو، ولا يأخذ مصالح روسيا الأمنية على محمل الجد.

● دخول جيش دولة أجنبية دولة أخرى بحكم القانون الدولي مستقلة، والسيطرة على عاصمة أوروبية لأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عبر القوة العسكرية، وبلا أي غطاء قانوني، على غرار دخول الجيش السوفيتي بودابست أو براغ في الحرب الباردة، الذي استند آنذاك إلى مقررات «معاهدة الصداقة والتعاون والمعونة المشتركة»، المنظمة للعلاقة بين البلدان الأعضاء في «حلف وارسو»، أمر يحمل رمزية شديدة الدلالة على سقوط النظام العالمي الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية، وهيمنت عليه الولايات المتحدة بعد الحرب الباردة.

لكن تبقى عدة أسئلة معلقة في الهواء بلا إجابات واضحة حتى الآن، ولعل أبرزها: لماذا قرر بوتين الذهاب حتى كييف، ولم يكتفِ بإقليم الدونباس، أو شرق أوكرانيا؟- كيف ستتعامل موسكو مع أوكرانيا بعد دخول كييف؟ هل ستمدد نحو غرب أوكرانيا أم ستكتفي بذلك؟- ما تصور موسكو لما بعد السيطرة العسكرية على أوكرانيا إذا تمت؟ هل ستقسمها، أم ستضمها، أم ستنصب سلطة جديدة موالية لها؟

تحتاج الإجابة عن هذه الأسئلة إلى تقرير آخر مفصل، وربما يتم مناقشة هذا الأمر قريباً، ولكن يبدو أنه في كل السيناريوهات (تقسيم أوكرانيا - تقاسم أوكرانيا مع جيرانها - الاكتفاء باقتطاع أراضٍ من أوكرانيا - بقاء أوكرانيا كما هي إذا خضعت لجميع الشروط الروسية)، هناك أهمية كبرى لدخول الجيش الروسي كييف، والسيطرة عليها؛ لما تمثله من رمزية قومية؛ لأنها العاصمة التاريخية لدولة الروس الأولى «كييفسكايا روس» في الفترة بين عامي (882-1240)، ورمزيتها الدينية؛ حيث شهدت أولى عمليات تعميده الروس وتحولهم إلى الديانة المسيحية الشرقية في «معمودية كيثانس» عام 988، والسيطرة على

الكنائس والأديرة التاريخية التي تمثل مهد المسيحية السلافية الشرقية، مثل دير كييف بيشيرسك لأقرا، وغيره من النفائس الكنسية التي بناها القياصرة الروس، واستعادة تبعية الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية لبطريركية موسكو وسائر بلاد الروس، بعدما فصلتها السلطات الأوكرانية عام 2018، ونقلت تبعيتها إلى بطريركية القسطنطينية المسكونية في إسطنبول التركية، واتهام موسكو آنذاك واشنطن بتدبير هذا الانشقاق داخل الكنيسة الأرثوذكسية ودعمه²⁵، وهو ما يفسر دعم بطريرك موسكو كيريل الأول للعملية العسكرية الروسية، وتصريحه بأن هذه العملية "لا تستهدف الشعب الأوكراني؛ بل تستهدف قوى الشر التي حاربت بشكل دائم ضد وحدة روسيا والكنيسة الروسية"، وعلق أنه عندما يستخدم كلمة بلاد الروس، فهو يعني ما جاء في مقدمة كتاب «حكايات السنوات الغابرة»، الذي كتبه القديس نيستور (1056-1114)، التي جاء فيها: "من أين بدأت الأراضي الروسية؟"²⁶، في إشارة إلى الأصل التاريخي المشترك عرقياً وسياسياً بين ما تسمى تاريخياً «الأخويات السلافيات الثلاث»، وهي: "روسيا الكبرى" (الاتحاد الروسي الحالي) و"روسيا الصغرى" (منطقة شرق أوكرانيا الحالية التي تضم شرق أوكرانيا على الضفة اليمنى من نهر دنيبر حتى العاصمة كييف) و"روسيا البيضاء" (جمهورية بيلاروس الحالية). وهو تكرار لنفس رواية الرئيس بوتين التي كتب عنها مقالاً بعنوان: "عن الوحدة التاريخية بين الروس والأوكرانيين"²⁷، لكل هذه الأسباب القومية والتاريخية والدينية، تسمى كييف في التراث الروسي "كييف مات غرادوف روسكيخ"، التي تعني بالعربية: «كييف أم المدن الروسية». كما أن كييف سيكون لها دور الحسم في أي سيناريو ستؤول إليه أوضاع أوكرانيا مستقبلاً، سواء بقيت أوكرانيا موحدة، أو تم تقسيمها.

²⁵Moscow Calls Independent Ukrainian Church US-Backed 'Provocation' - Tatiana Vorozhko - Voice of America - October 12, 2018, <https://www.voanews.com/a/moscow-calls-independent-ukrainian-church-us-backed-provocation-/4611972.html>

²⁶Патриарх Кирилл призвал молиться о мире на "русской земле" - Интерфакс - 27 февраля 2022, <https://www.interfax.ru/russia/824921>

²⁷On the Historical Unity of Russians and Ukrainians - Article by: Vladimir Putin - Kremlin - July 12, 2021, <http://en.kremlin.ru/events/president/news/66181>

جبهات مرشحة للانفجار

أعلن الرئيس الأوكراني زيلينسكي، في السابع والعشرين من فبراير (شباط)، تشكيل فيلق عسكري أجنبي، داعياً كل من يرغب في "التطوع" لقتال الجيش الروسي، إلى المجيء إلى أوكرانيا، وإمكانية دخول هؤلاء "المتطوعين" بدون إجراءات التأشيرة المعتادة²⁸، وسرعان ما أبدت وزيرة الخارجية البريطانية ليز تراس، دعمها للبريطانيين الذين يريدون الذهاب إلى أوكرانيا لقتال القوات الروسية، مدعية أنه لا يوجد "عائق قانوني يمنعهم"²⁹، وتبعها في هذه الخطوة الدانمارك، ولاتفيا، وكرواتيا، وغيرها من البلدان الأوروبية.

تزامن مع هذا الإعلان، خروج عدة منشورات لناشطين من أوكرانيا، وجورجيا، ومولدوفا، تدعو إلى قدوم أكبر قدر ممكن من الأجانب للقتال إلى جانب أوكرانيا، وتوريط روسيا في حرب طويلة تنهكها، واستغلال الفرصة لقيام القوات الجورجية بعملية "تحرير" أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى منطقة ترانسنيستريا/بريدنيستروفا في مولدوفا، يتبع ذلك القيام بعملية عسكرية منسقة ومتزامنة للقوات اليابانية للسيطرة على جزر الكوريل وسخالين، وغيرها من الجزر الروسية في المحيط الهادئ والساحل الشرقي لسيبيريا، والقوات الفنلندية للسيطرة على كاريليا شمال غرب روسيا، وسيطرة القوات الألمانية على كالينينغراد التي كانت تسمى "كونيغسبرغ"، وانفصال سكان شمال القوقاز الروسي وإعلان ما تسمى "جمهورية إشكيريا"، وتقسيم سيبيريا والشرق الأقصى بين أوروبا وأمريكا.

انتشرت هذه المنشورات، التي تبدو خيالية، على نطاق عريض في الداخل الروسي، وشكلت مع العقوبات القاسية التي فرضها الغرب تغييراً كبيراً في المزاج الشعبي الذي لم

²⁸Ukraine appeals for foreign volunteers to join fight against Russia - By: Bethan McKernan - The Guardian - Sun 27 Feb 2022, <https://www.theguardian.com/world/2022/feb/27/ukraine-appeals-for-foreign-volunteers-to-join-fight-against-russia>

²⁹Liz Truss backs people from UK who want to fight - Ukraine conflict - BBC - 28 Feb, 2022, <https://www.bbc.com/news/uk-60544838>

يكن متقبلاً في البداية فكرة الدخول في نزاع مسلح مع أوكرانيا "الشقيقة" كما يسميها الروس، وبدا للكثيرين منهم أن هذه العملية العسكرية كانت "حتمية"، وأن هناك استهدافاً حقيقياً لبلدهم كان يستدعي تحركاً استباقياً، ومما زاد من هذا الشعور تقدم جورجيا ومولدوفا بطلبات عاجلة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وتدفق قوات الناتو على رومانيا، وحشد القوميين في مولدوفا الراغبين في الوحدة مع رومانيا لكتائب من المتطوعين الراغبين في تحرير "ترانسنيستريا"، حسب التسمية المولدوفية، أو "بريدنيستروفيا" حسب تسمية السكان ذوي الأغلبية الروسية، وهو ما دفع سلطة الأمر الواقع في الإقليم المستقل من جانب واحد إلى طلب الاعتراف باستقلاله من جانب روسيا والعالم³⁰.

Заявление МИД ПМР в связи с обращением РМ о вступлении в ЕС

04/03/22



Расцениваем подачу руководством Республики Молдова заявки на членство в Европейском союзе как геополитическое решение, ведущее к изменению международных границ и сфер влияния в региональном пространстве и кардинально меняющее обстоятельства окончательного урегулирования молдо-приднестровских отношений.

С пониманием относимся к решению руководства соседней республики.

Между тем подача РМ заявки на вступление в ЕС в условиях многолетнего неурегулированного конфликта между Приднестровьем и Молдовой, без учета мнения и вне рамок консультаций с приднестровской стороной, при полном игнорировании обсуждения данного вопроса в существующих переговорных форматах, включая международную площадку «Постоянного совещания...», ставит окончательную точку в процессе урегулирования, требующую срочного международно-правового оформления.

Решение молдавских властей означает готовность к передаче суверенитета Молдовы наднациональным органам в Брюсселе и переход к окончательному военно-политическому и экономическому освоению территории РМ Западом.

Заявка о членстве в ЕС свидетельствует об отказе Молдовы от диалога с Приднестровьем по параметрам совместного сосуществования, что подтверждается текущим кризисным состоянием переговорного процесса, параллельно формата «5+2», отказом от встреч на высшем уровне, неисполнением обязательств по пакету «Берлин плюс», усилением блокадно-ограничительных мер против Приднестровья.

Считаем необходимым подчеркнуть, что приднестровский народ цивилизованным и демократическим способом определил свою судьбу 2 сентября 1990 года, пресек военную агрессию Молдовы в 1991-1992 годах, отстояв свою свободу и независимость, подтвердил неизменность курса на международное признание суверенитета и независимости Приднестровской Молдавской Республики на всенародном референдуме 17 сентября 2006 года.

В сложившихся новых обстоятельствах, в том числе созданных действиями руководства Молдовы, призываем молдавскую сторону приступить к диалогу с Приднестровьем с целью окончательного цивилизованного урегулирования взаимоотношений на основе мирного добрососедского существования двух независимых государств путем подписания всеобъемлющего межгосударственного договора.

Одновременно с этим обращаемся к Организации Объединенных Наций, ОБСЕ, посредникам и наблюдателям в переговорном процессе, международному сообществу в целом с просьбой признать существующую более тридцати лет реальность в виде Приднестровской Молдавской Республики, обеспечить соблюдение права приднестровского народа на самоопределение и установить дипломатические отношения с Приднестровьем.



وثيقة طلب الاعتراف باستقلال ترانسنيستريا/بريدنيستروفيا من مولدوفا

³⁰Приднестровье потребовало международного признания своей независимости - EADaily - 4 марта 2022, <https://eadaily.com/ru/news/2022/03/04/pridnestrove-potrebovalo-mezhdunarodnogo-priznaniya-svoey-nezavisimosti>

يبدو أن المخطط الأنجلوسكسوني (الأمريكي-البريطاني)، وهو الأقرب إلى الدقة من كونه مخططاً "غريباً"، يهدف إلى إطالة أمد الصراع في أوكرانيا، واستنزاف الجيش الروسي في معركة طويلة ومكلفة، بالتزامن مع إنهاء روسيا اقتصادياً، وإذا بدا أنها غير قادرة على الحسم مع طول أمد الحرب، سيشجع هذا الوضع البلدان التي تعاني صراعاً مع أقاليم متمردة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، على التحرك عسكرياً لفتح عدة جبهات متزامنة تزيد من إنهاء روسيا عسكرياً، وسياسياً، واقتصادياً، مع احتمالية عالية لتطورات تحدث في آسيا الوسطى، كانت أحداث كازاخستان الأخيرة - فيما يبدو - مجرد "بروفة" أولية، مع خطر تسرب عناصر داعش من أفغانستان، وربما الوصول إلى حملة عسكرية في النهاية منسقة بالتحالف مع دول الجوار لإعادة تقسيم روسيا، وهندسة حدودها وتركيبتها العرقية من جديد، ومواجهة الصين عبر مشروع "سيبيريا الأوروية"، كما ورد في كتاب "رقعة الشطرنج الكبرى" (The Grand Chessboard) لمستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق ذي الأصل البولندي، زبغنيو بريجينسكي، الذي اقترح عام 1997، أن يتم بناء مشروع غربي خاص لروسيا "المستقبل"، وقد قال في هذا الشأن: "يجب أن يتضح أكثر للنخبة السياسية الروسية أن الأولوية الأولى لروسيا هي تحديث نفسها بدلاً من الانخراط في جهد لا طائل من ورائه لاستعادة مكانتها السابقة كقوة عالمية. بالنظر إلى الحجم الضخم للبلاد وتنوعها، فإن النظام السياسي اللامركزي القائم على السوق الحرة من المرجح أن يطلق العنان للإمكانات الإبداعية لكل من الشعب الروسي والموارد الطبيعية الضخمة للبلاد. في المقابل، فإن روسيا اللامركزية ستكون أقل عرضة للتعبئة الإمبريالية. إن النظام المثالي لروسيا أن تتحول إلى عدة دول في إطار دولة كونفدرالية مؤلفة من (جمهورية روسيا الأوروية، وجمهورية سيبيريا، وجمهورية الشرق الأقصى)، وهو ما سيجعل من الأسهل تنمية علاقاتها الاقتصادية بشكل أوثق مع أوروبا من جانب، وكذلك مع الدول الجديدة في آسيا الوسطى وباقي الشرق من جانب آخر. سيكون لدى الكيانات الكونفدرالية الثلاثة أيضاً قدرة أكبر على الاستفادة من الإمكانيات الإبداعية المحلية التي خففتها لقرون اليد البيروقراطية الثقيلة لموسكو". لأجل تحقيق هذه الغاية، اقترح بريجينسكي ضرورة دعم

"التعددية الجيوسياسية" في فضاء بلدان ما بعد الاتحاد السوفيتي، وخلق "أوضاع إستراتيجية وعسكرية جديدة في هذه البلدان، وخاصةً في أوكرانيا؛ لوضع حد لأي طموحات أو إغراءات إمبريالية لموسكو"؛ ومن ثم بعد نهاية المواجهة معها، ستتجه "روسيا الجديدة" نحو "الولايات المتحدة، والتعاون معها لتعزيز الاستقرار الإقليمي، وتقليل احتمالية نشوب صراعات على طول حدودها الجنوبية الجديدة، التي يحتمل أن تكون غير مستقرة، لكن سياسة ترسيخ التعددية الجيوسياسية لا ينبغي أن تكون مشروطة بوجود علاقة جيدة مع روسيا"³¹.

من المتعارف عليه أن رؤية زبغنيو بريجنسكي مهيمنة -إلى حد كبير- على المنظرين الإستراتيجيين الديمقراطيين تجاه روسيا كبداية يعقبها الصين، مقابل رؤية وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، الذي يعتقد أن الأفضل من ذلك "عقد صفقة مع موسكو، تحصل بموجبها على مساحة نفوذ في المجال ما بعد السوفيتي، مقابل تعهد باحترام حدود هذه البلدان وعدم تغييرها، وانخراطها- فيما بعد- في جهد مشترك مع أمريكا لمواجهة الصعود الصيني"، وهو ما حاول ترمب القيام به لولا تعطيل الديمقراطيين له³²؛ ولذلك كان مفضلاً لدى موسكو، ويبدو أن رؤية بريجنسكي هي التي انتصرت في النهاية، ويقين موسكو من أن المواجهة باتت حتمية ولا حل أمامها سوى انتظار تلقي الضربة الأولى، وما يتبعها من خسائر جيوسياسية، وربما تقسيم لها، هو ما دفعها إلى المبادرة بالضربة الأولى، وتحمل عواقبها الاقتصادية.

³¹THE GRAND CHESSBOARD, American Primacy and Its Geostrategic Imperatives - ZBIGNIEW BRZEZINSKI - 1997 - Page 202, https://www.cia.gov/library/abbottabad-compound/BD/BD4CE651B07CCB8CB069F9999F0EADDEE_Zbigniew_Brzezinski_-_The_Grand_ChessBoard.pdf

³²45 years ago, Kissinger envisioned a 'pivot' to Russia. Will Trump make it happen? - The Washington Post - 14 Dec 2016, <https://www.washingtonpost.com/news/global-opinions/wp/2016/12/14/45-years-ago-kissinger-envisioned-a-pivot-to-russia-will-trump-make-it-happen/>

تعقيدات المشهد السياسي في المجال ما بعد السوفيتي

لفهم تعقيدات المشهد السياسي في بلدان الاتحاد السوفيتي السابقة؛ علينا العودة إلى قانون «إجراءات حل القضايا المتعلقة بانسحاب جمهورية اتحادية من الاتحاد السوفيتي»، الصادر في الثالث من أبريل (نيسان) 1990، والموقع عليه من جميع ممثلي الجمهوريات السوفيتية الراغبة في الانفصال، حيث ينظم هذا القانون الإجراءات التي ينبغي اتباعها إذا قررت جمهورية سوفيتية الاستقلال، وكيفية التعامل مع القوميات المختلفة داخلها، التي تمتعت بوضعية «الحكم الذاتي» في ظل السلطة السوفيتية.

بدأت القصة عندما تم توقيع «معاهدة تأسيس الاتحاد السوفيتي»، في 30 ديسمبر (كانون الأول) 1922، التي ضمت البلدان الثلاثة (روسيا، وأوكرانيا، وبيلاروس)، وانضمت إليها فيما بعد باقي أقطار الإمبراطورية الروسية المنهارة، التي لم يكن لها دولة قومية سابقة، وليس لها حدود واضحة متعارف عليها؛ ولذلك جرى رسم حدود لها على عدة مراحل منذ عام 1922، إلى أن استقرت في ستينيات القرن الماضي. ولمواجهة إشكالية وجود قوميات مختلفة عن غالبية سكان الجمهوريات الجديدة "الروس" في كازاخستان الوليدة وبقية جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية - "الأرمن" داخل جمهوريتي جورجيا وأذربيجان - "الأبخاز" و"الأوسيتيون" في جورجيا، إلخ، نص الميثاق السوفيتي على تمتع كل قومية داخل الاتحاد السوفيتي بوضعية "الجمهورية" التي كانت أكبر من كونها فيدرالية، وأقل من كونها كونفدرالية. أما القوميات الصغيرة داخل هذه "الجمهوريات" فمنحها الميثاق التأسيسي الحق في الحكم الذاتي، الذي بموجبه يتم احترام لغتها وثقافتها، وعدم فرض اللغة القومية الخاصة بهذه الجمهورية على سكانها، على أن تكون الروسية هي اللغة المشتركة لكل شعوب الاتحاد، واحتفاظ كل قومية بحقها في استعمال لغتها القومية والتدريس بها.

عندما ظهرت بوادر النزعة القومية داخل الاتحاد السوفيتي، وتزايدت الرغبات في الاستقلال من بعض الجمهوريات، خشيت القوميات الصغيرة من أن تضيع حقوقها، ولحل هذه المشكلة؛ تم الاتفاق على إصدار قانون «إجراءات حل القضايا المتعلقة بانسحاب جمهورية اتحادية من الاتحاد السوفيتي»، الذي نظم وضعية هذه القوميات في المادة الثالثة من القانون، التي تنص على التالي: "في حال تشكل أي جمهورية اتحادية تضم مناطق أو مقاطعات متمتعة بالحكم الذاتي، يتم إجراء استفتاء منفصل لكل منطقة حكم ذاتي. تحتفظ شعوب الكيانات المتمتعة بالحكم الذاتي بالحق في اتخاذ قرار مستقل بشأن مسألة بقائهم في الاتحاد السوفيتي، أو في جمهورية الاتحاد المنفصلة، وكذلك إثارة مسألة وضعهم القانوني كدولة مستقلة"³³. منح القانون ثلاثة خيارات لهذه الكيانات:

- الانضمام إلى الجمهورية الجديدة المنفصلة.
- البقاء داخل قوام الاتحاد السوفيتي.
- الانفصال وتشكيل دولة مستقلة.

نتيجة فشل جميع الجمهوريات السوفيتية السابقة في إيجاد حل للمسألة القومية، وسعي قادتها الجدد إلى بناء "دولة الأمة" ذات اللغة والثقافة الواحدة المنتمية إلى الأغلبية، ثارت هذه المناطق على الجمهوريات الجديدة، وصوتت في استفتاء بقاء الاتحاد السوفيتي من عدمه على بقاءه، وبعد تفكك الأخير صوتت لصالح الاستقلال، وطلبت الانضمام إلى الاتحاد الروسي؛ لأنه— أولاً: الوريث الشرعي للاتحاد السوفيتي— ثانياً: لأن الاتحاد الروسي طبق النظام الفيدرالي والحكم الذاتي للقوميات غير السلافية (يوجد 22 جمهورية فيدرالية داخل الاتحاد الروسي، ومنطقتا حكم ذاتي)، في حين لم تطبق أي جمهورية سوفيتية سابقة هذا النموذج. وجدت موسكو أن عليها "مسؤولية" تاريخية في حماية هذه القوميات،

³³О порядке решения вопросов, связанных с выходом союзной республики из СССР - СОЮЗ СОВЕТСКИХ СОЦИАЛИСТИЧЕСКИХ РЕСПУБЛИК - Статья 3 - Москва, Кремль, 3 апреля 1990 года, N 1409-I, <https://docs.cntd.ru/document/902002993>

وإمكانية استخدامها كوسيلة لبقاء نفوذها على الجمهوريات المستقلة حديثاً، خاصةً في ظل وجود أقليات روسية كبيرة في بعضها. ومن هذا المدخل نشأت أزمة المناطق المتمردة، والعلاقة بينها وبين موسكو، التي عززتها الأخيرة في تعديلات الدستور الذي دخل حيز التنفيذ في 4 يوليو (تموز) 2020، الذي جاء في نص البند الأول من المادة الـ (67) ما يلي: "الاتحاد الروسي الحالي هو الوريث الشرعي للاتحاد السوفيتي؛ فيما يتعلق بجميع التعهدات والاتفاقيات والمسؤوليات التي التزم بها"³⁴. ويمكن تقسيم هذه المناطق المتمردة إلى ثلاثة أقسام رئيسية.

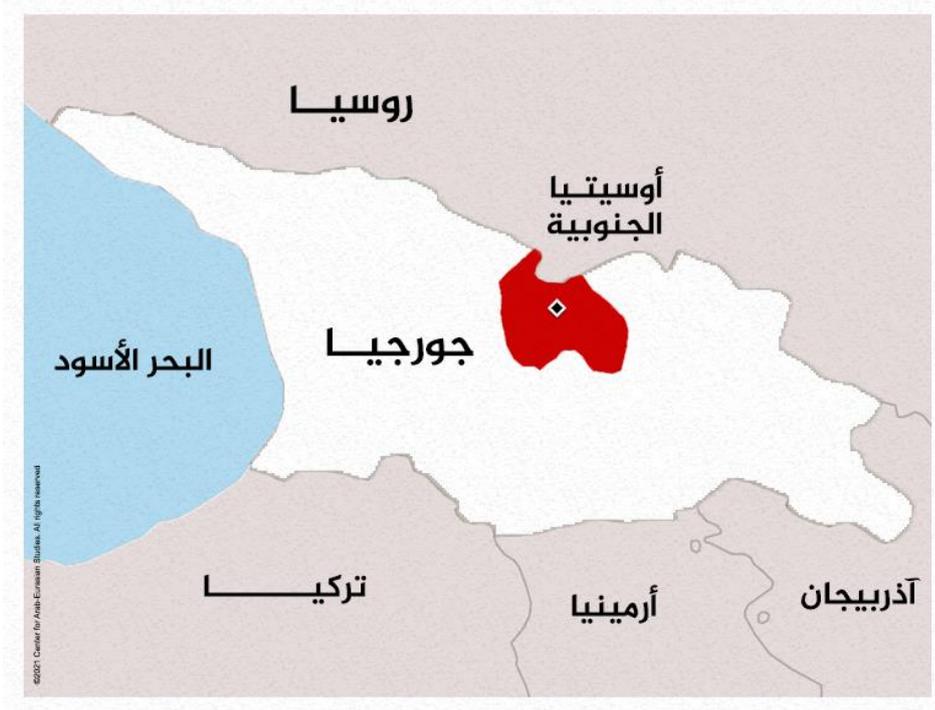
القسم الأول: مناطق ساخنة أعلنت استقلالها من جانب واحد، وهي:

- جمهورية بريدنيستروفيا في مولدوفا.

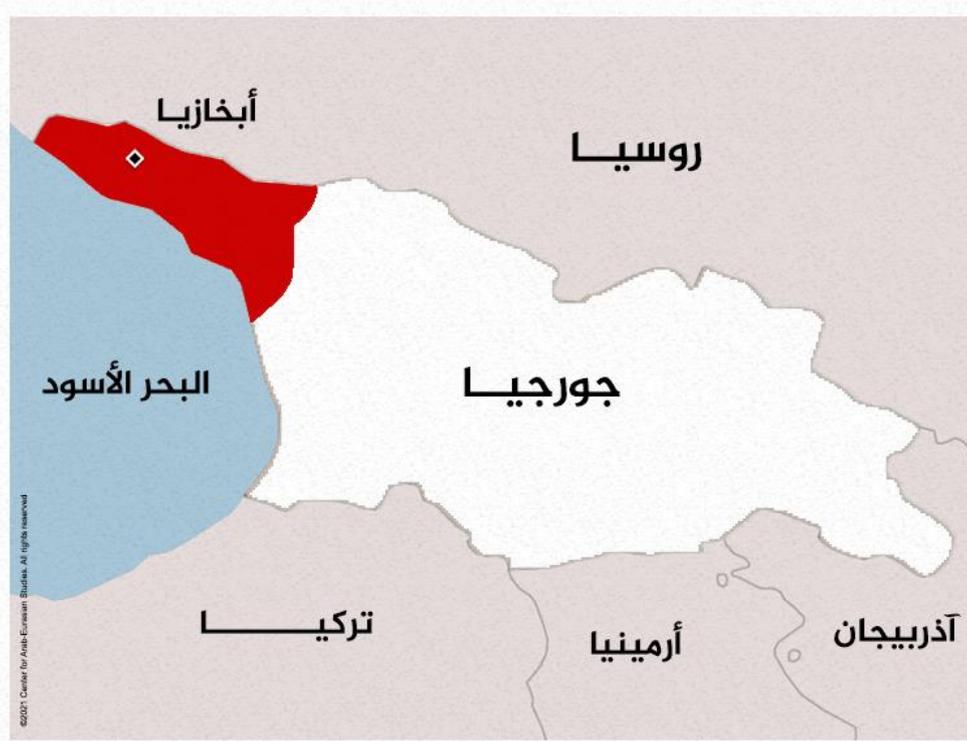


³⁴ Полный текст поправок в Конституцию: что меняется? – Duma, <http://duma.gov.ru/news/48045/>

● جمهورية أوسيتيا الجنوبية في جورجيا.



● جمهورية أبخازيا في جورجيا.



● جمهورية دونيتسك في أوكرانيا.

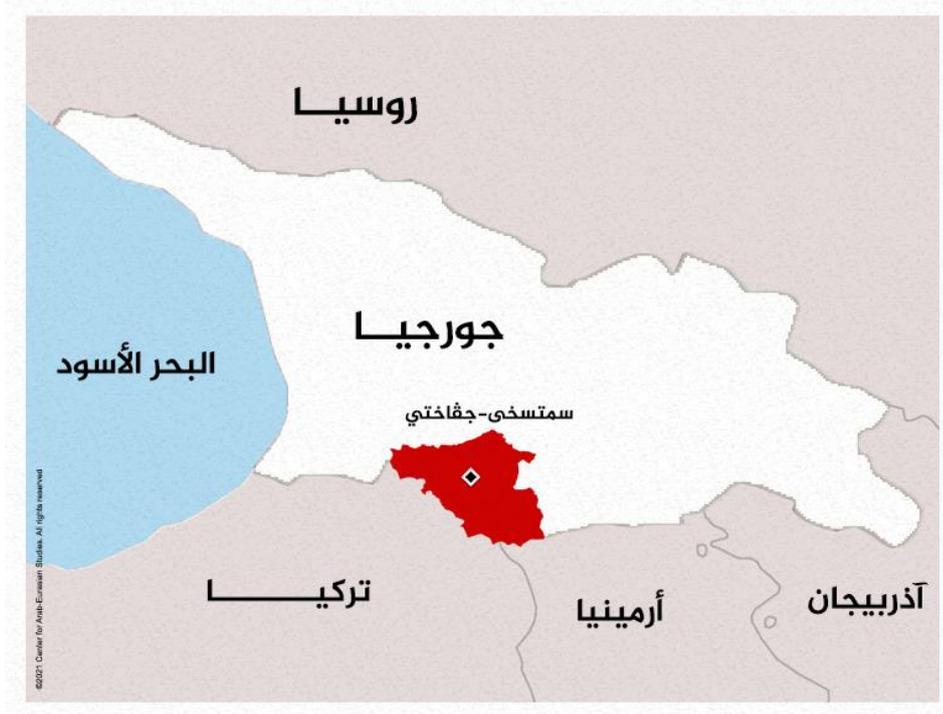


● جمهورية لوغانسك في أوكرانيا.



القسم الثاني: مناطق مطالبة بالاستقلال لا يزال الصراع فيها مجمدًا:

● سمتسخي-جقاختي، ذات الأغلبية الأرمنية في جورجيا.



- غاغوزيا، في مولدوفا، التي ينتمي غالبية سكانها إلى الترك الأوغوز، ويعتقدون في غالبيتهم المسيحية الأرثوذكسية، وتحت حماية الجيش الروسي.



القسم الثالث: مناطق لديها نزعة انفصالية قابلة للانفجار:

- الروسينيون وذوو الأصول المجرية والرومانية في زاكارباتسكا، غرب أوكرانيا، الذين صوتوا بنسبة 78% لنيل حكم ذاتي داخل أوكرانيا، وهو ما رفضته الأخيرة، وأثيرت بعد ذلك مسألة الانفصال وتأسيس جمهورية مستقلة، أو تقسيم المنطقة من خلال عودة كل قومية إلى بلد الجوار الذي تنتمي إليه³⁵.



³⁵ «Для русских мы — бандеровцы» Эти украинцы считают себя русинами. Их проблемы не интересуют ни Москву, ни Киев - Лента - 28 марта 2019, <https://lenta.ru/articles/2019/03/28/zakarpacie2/>

- **منطقة أجاريا، ذات الأغلبية المسلمة في جورجيا، التي أعلنت نفسها جمهورية ذاتية الحكم، في الفترة من 2001 إلى 2004، بدعم من موسكو، وتزعّمها السياسي الأرستقراطي أصلان أباشيدزه، الذي ينتمي إلى عائلة كبيرة لها ميراث في الحكم والسياسة في المنطقة، ويقوم في موسكو منذ 2004، ويلقى دعمًا منها.**



- **منطقة رودني ألتاني، في شرق كازاخستان، ذات الأغلبية الروسية. وفي عام 2017، صرح العضو السابق في مجلس الدوما الروسي بافيلشبيروف، ممثل الحزب الليبرالي الديمقراطي الروسي: "نحن دولة عظيمة، ويجب أن نحمي مصالحنا في جميع أنحاء العالم بكل القوات المتاحة. وعلينا أن نسترد ما فقدناه في ما تسمى ببلدان الجوار القريب. على سبيل المثال، يعتبر البعض أن المواطنين الروس في كازاخستان شتات روسي، وهذا خطأ سياسي كبير؛ لأن هذه أراضينا التي انتزعت منا مؤقتًا. الحدود ليست أبدية، وسنعود إلى حدود الدولة الروسية، وسيكون ذلك في**

المستقبل القريب"³⁶. يُذكر أن الرئيس بوتين قال في حوار له مع القناة الروسية الأولى التابعة للدولة: «عندما تأسس الاتحاد السوفيتي منح الحق لجمهورياته في الانفصال دون وضع آلية لهذا الأمر، وكذلك لم يوضح وضع الأراضي الروسية تاريخياً التي مُنحت لبعض هذه الجمهوريات هديةً من روسيا في ظل اتحاد واحد، وبما أنهم قرروا الانفصال، فينبغي في المقابل أن تعود إلينا هذه الهدايا"³⁷، أي تعود هذه الأراضي إلى أصحابها من جديد.



● منطقة داوغا قبيلس، ذات الأغلبية الروسية، والمحاذية للحدود الروسية-اللاتفية. يقدر عدد سكان جمهورية لاتفيا البلطيقية من ذوي الأصول الروسية، حسب المفوضية الأوروبية المعتمدة على بيانات (المكتب المركزي للإحصاء في لاتفيا)، بنحو 25.4% من مجموع السكان، وهو ما يجعلهم العرقية الأكبر في البلاد بعد

³⁶ Депутат Госдумы РФ призвал «вернуть исконно русские земли» в Казахстане – Uralskweek – 31.01.2017 <https://www.uralskweek.kz/2017/01/31/122328/>

³⁷ «Россия. Кремль. Путин». Документальный фильм – Россия 1 – Jun 21, 2020 <https://www.youtube.com/watch?v=etszjYX6pZU>



اللاتفيين، ولكن النسبة تصل إلى 30.9%³⁸ إذا ما أُضيف إليهم ذوو الأصول (الأوكرانية-البيلاروسية) التابعون لكنيسة موسكو الأرثوذكسية، ويتحدثون الروسية، بالإضافة إلى نحو ربع مليون على أقل تقدير من ذوي الأصول الروسية، ترفض الحكومة اللاتفية منحهم الجنسية، حسب بيانات الشبكة الأوروبية لعديمي الجنسية (European Network on Statelessness)³⁹. والوجود الروسي في المنطقة قديم، منذ عام 1577، بعد استيلاء القيصر الروسي إيفان الرابع عليها، والشيء نفسه في إستونيا، مع تأثير روسي في ليتوانيا، ولكنه محدود مقارنة بالبلدين السابقين، ووجود أحزاب روسية مرتبطة بالكرملين، أهمها حزب «روسكي سايوز لاتفيي»، و(حزب اتحاد الروس اللاتفيين).

³⁸Population: demographic situation, languages and religions - Demographic situation - European commission - WEDNESDAY, 1 DECEMBER, 2021, https://eacea.ec.europa.eu/national-policies/eurydice/content/population-demographic-situation-languages-and-religions-40_en

³⁹“Non-Citizens” of the Baltics: Common Misconceptions explained - By: a Latvian non-citizen - European Network on Statelessness - 18 NOV 2021, <https://www.statelessness.eu/updates/blog/non-citizens-baltics-common-misconceptions-explained>



يضاف إلى ما سبق، وجود شتات روسي يقدر بنحو 20% في بلدان آسيا الوسطى الخمسة (أوزباكستان، وطاجيكستان، وقرغيزستان، وكازاخستان، وتركمانستان)⁴⁰، واستخدام واسع النطاق في هذه المنطقة للغة الروسية، إلى جانب بلدان جنوب القوقاز (جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان).

⁴⁰ Хранители империи. Как живет русская диаспора в Центральной Азии - Дмитрий Холявченко - Тайга - 16 Май 2021, <https://tayga.info/167538>



باختصار، لدى روسيا أوراق لعب كثيرة، وحلفاء مسلحون في كل هذه المنطقة، قادرة على تحريكهم في الوقت الذي تراه مناسباً، وخلط جميع الأوراق للغرب، وتحويل المنطقة من بحر البلطيق مروراً بآسيا الوسطى، وصولاً إلى أوروبا الشرقية ووسطها، إلى كتلة من اللهب الذي يحرق الجميع. مع إمكانات كبيرة لديها تمكنها من استعادة التوتر المسلح من جديد في وسط أوروبا من خلال بوابة البلقان؛ عبر حلفائها من القوميين الصرب الطامحين إلى استعادة "صربيا الكبرى"، وانتزاع إقليم كوسوفو، وجمهورية صرب البوسنة، والأراضي ذات الأغلبية الصربية في كرواتيا ومقدونيا الشمالية، بالإضافة إلى وجودها العسكري في

منطقة كالينينغراد، وقواعدها الجوية والبحرية في سوريا، ونظرة واحدة إلى الخريطة توضح الوضع الجديد، وتطوير القدرات العسكرية الروسية للناو من عدة اتجاهات.



أماكن وجود القوات الروسية وقدراتها العسكرية وحلفائها حول العالم

التصعيد الروسي.. أسبابه ودوافعه الداخلية

سبق أن تم تناول أسباب روسيا ودوافعها من وراء التصعيد الأخير، وصولاً إلى بدء العملية العسكرية، من زاوية المصالح الجيوسياسية والأمنية بشكل مفصل في دراسة سابقة بعنوان «[مواجهة مؤحلة منذ ثلاثة عقود روسيا.. الولايات المتحدة.. الناتو](#)» يمكن العودة إليها؛ لذا قد يكون من المفيد التركيز على جانب آخر مرتبط بالشؤون الداخلية الروسية، ربما لعب دوراً كبيراً في اتخاذ القرارات الأخيرة.

مر على حكم الرئيس بوتين 21 عامًا، منها (16) عامًا حكم فيها بشكل مباشر رئيسًا، وأربعة أعوام من الخلفية (2008-2012) رئيسًا للوزراء. ثبت فيها وضع الدولة الروسية التي كانت على المحك عشية توليه السلطة عام 2000، بعدما أنهى التمرد المسلح في شمال القوقاز، وسيطر على الأوليغارشية وأخضعها، واستعاد الأمن في الداخل بعد مرحلة طويلة من الفوضى، ونتيجة للغزو الأمريكي للعراق، وارتفاع أسعار النفط عالميًا، تحسنت أوضاع الروس إلى حد كبير مقارنةً بما كان قبل ذلك، إلى جانب "استعادة" شبه جزيرة القرم، وبروز روسيا من جديد لاعبًا أساسيًا على الساحة الدولية، لكن الجيل الجديد الذي لم يعاصر كل هذه التحديات، ولديه وسائل حديثة لم تكن متوفرة للأجيال التي سبقتهم للاتصال بالعالم الخارجي، من خلال السفر والفضائيات والإنترنت، ومعرفتهم بعدة لغات أجنبية، ليس راضيًا عن الأوضاع الاقتصادية، والحريات العامة، وغير مبالٍ سياسيًا لفقدانه الأمل في التغيير عبر المشاركة الحزبية التقليدية، وقد تقام هذا الوضع بشكل كبير- بعد العقوبات الغربية التي بدأت منذ عام 2014، وجائحة كوفيد-19. لا يحمل هذا الجيل كثيرًا من التقدير لدور الرئيس بوتين، خلافًا لجيل الآباء، ويعود ذلك الأمر إلى سبب بسيط؛ هو أن الزمن قد تغير، وتطلعات هؤلاء ومعارفهم أوسع، ومسألة الأمن وعظمة روسيا الخارجية باتت من الأمور المسلم بها، ولأنهم أيضًا لم يعاصروا تلك الأيام الصعبة.

مشكلة "تصادم الأجيال"، مع التدهور الديمغرافي نتيجة الوضع الاقتصادي الصعب، وغياب أي فكرة سياسية جامعة للشعب الروسي تستنهض قواه الكامنة، وصولاً إلى حالة الركود الداخلي الحالية الأشبه بتلك التي انتابت البلاد في الربع الأخير من عمر الاتحاد السوفيتي، تمثل عامل خطر كبير قد يدفع إلى هبة شعبية كبرى قد تتحول إلى فوضى شاملة، بدأت بوادرها تظهر عبر عدة تظاهرات تخرج بين الفينة والأخرى في موسكو، والمدن الكبرى، والمدن الطرفية، على سبيل المثال، مدينة خاباروفسك المحاذية للحدود مع الصين، وغيرها من المشكلات التي سبق أن نوقشت في مقال بعنوان «[ثلاث عقبات رئيسية تعترض تحول روسيا إلى قوة عالمية](#)» يمكن العودة إليه.

رغم بعض النجاحات التي حققتها السياسة الخارجية الروسية، فإنها لم تحقق شيئاً يذكر على مستوى السياسة الداخلية التي تهتم المواطن، وطبقة الشباب بالتحديد، غير المكترث لتنظيرات المفكرين الروس عن مستقبل العالم، والنظام الأحادي أو متعدد القطبية، ولا تمثل لهم كل هذه القضايا أي أهمية. باختصار، النظام السياسي الروسي ومعه روسيا بكاملها في خطر حقيقي، وأوضاع البلاد لا تتحمل -بأي شكل من الأشكال- تأجيل الإجابة عن سؤال "التنمية الداخلية"، وأصبح من غير المقبول أن يظل وضع "الحريات السياسية" مقيداً بذريعة وجود "أخطار" خارجية، ولم يعد يشفع للرئيس بوتين كل ما حققه من نجاحاتٍ سابقة؛ وعليه فإنه لا بد من القيام بخطوات سريعة وجادة لتحسين الأوضاع الاقتصادية للروس، وفتح المجال السياسي، وتحرير الاقتصاد من هيمنة القلة المسيطرة عليه. يشدد على ضرورة القيام بهذه الخطوات مفكرون روس مرموقون، وينتمون في غالبيتهم العظمى إلى الفكر المحافظ، أو اليساري، مثل: (سيرغي كاراغانوف، وأندريه فورسوف، وفيودور لوكيانوف، ومكسيم شيفتشينكو، والفريق أول ليونيد إيفاشوف)، وغيرهم، بل حتى ألكسندر دوغين - نحن هنا لا نتحدث عن أي ليبراليين.

هنا قد يكون من المهم الغوص داخل أعماق العقلية السياسية الروسية، وفهم تصوراتها عن النهضة الاقتصادية، وكيفية تحقيقها، وجدير بالذكر أن ما سأذكره محاولة للفهم؛ من خلال

تسليط الضوء على أفكار النخبة الحاكمة في الكرملين وتحليلها، وليس تبنياً لها، أو تقييماً بالإيجاب أو السلب، وذلك في العناصر التالية:

- تعتمد الفلسفة الروسية، نتيجة ميراثها الطويل في الحروب والصراعات الخارجية، على مبدأ الجيوبوليتيك أولاً وقبل كل شيء. وفق هذه الفلسفة، فإن أي حديث عن الرفاهية الاقتصادية دون معالجة الهزيمة الجيوسياسية التي تعرضت لها روسيا منذ عام 1991، لن يمكنها حتى لو تحسنت أوضاع شعبها الاقتصادية من عكسها لصالحها، وأن مقارنتها بالنموذج الصيني الذي بدأ منذ إصلاحات دينج شياو بينغ، عام 1976، مقارنة في غير محلها؛ للاختلاف الكبير في طبيعة كلا الشعبين، والأخطار الجيوسياسية المختلفة بينهما، وعدم وجود حزب عقائدي يقود الدولة والمجتمع مثل الحزب الشيوعي الصيني، وقد فصل في هذا الأمر البروفيسور الروسي أندري فورسوف، في مقال مطول بعنوان «نظرة روسية لصعود الصين.. دروس ناقصة- لماذا قبلت أمريكا بالصين لتكون مصنع العالم؟»⁴¹؛ وعليه، فإن روسيا لديها وضعية خاصة تحتاج معها، أولاً وقبل كل شيء، إلى العمل في الخارج لخدمة الداخل فيما بعد.

- قدرات روسيا الاقتصادية والتكنولوجية الحالية لا تؤهلها للاستفادة مما لديها من ثروات طبيعية متنوعة، وعملية إعادة البناء الداخلي للحاق بالغرب أو حتى الصين من خلال الاعتماد على الذات، تكاد تكون مستحيلة؛ نظراً إلى الفجوة الواسعة بين الطرفين التي يصعب ردمها؛ يعني هذا ألافاهية بلا انفتاح على الخارج، وخلق موازنات بين الاستثمارات القادمة من أوروبا وأمريكا والصين واليابان وكوريا

نظرة روسية لصعود الصين.. دروس ناقصة- لماذا قبلت أمريكا بالصين لتكون مصنع العالم؟- أندريه فورسوف- مركز المسبار للدراسات 41
<https://www.almesbar.net/%D9%86%D8%B8%D8%B1%D8%A9-%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D9%91%D8%A9-%D9%84%D8%B5%D8%B9%D9%88%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%8A%D9%86-%D8%AF%D8%B1%D9%88%D8%B3-%D9%86%D8%A7%D9%82%D8%B5%D8%A9-%D9%84%D9%85/>

الجنوبية، ولا إمكانية لضمان سيادة الدولة الروسية ومصالحها العليا، وعدم خضوعها لشروط رأس المال في ظل هزيمتها الجيوسياسية. والاعتقاد بأن قوة الاقتصاد ستمكن البلاد من تغيير قواعد اللعبة مخاطرة قد تؤدي في النهاية إلى تقسيمها، ولن يواجه الشعب هذا التحدي؛ لأن الروس - وفق هذا الرأي - لا يميلون بطبيعتهم إلى التضحية إذا كانت لديهم رفاهية، وستصبح رغبتهم في التمسك بها وعدم التفريط فيها مقدمة على غيرها من الأمور الأخرى، وستبحث كل قومية، ومنطقة روسية عن مصالحها الذاتية، حتى لو كانت على حساب الدولة ووحدتها، في حين أن بقاء الروس في مستوى اقتصادي مقبول، أو ما يمكن وصفه بالوضع الاقتصادي "الرديء"، وشحنهم عاطفياً تجاه مصالح روسيا القومية، سيمكن الدولة من تأمين مصالحها الجيوسياسية، وخلق نفوذ قوي في الخارج، يجعلها صاحبة اليد العليا في فرض شروطها على رأس المال الأجنبي، وتبدأ بجني الثمار، وحصول شعبها على رفاهية، دون وجود أخطار تهدد سيادة الدولة وبقائها.

● نهضة روسيا الاقتصادية مرتبطة بعلاقة قوية مع المنظومة الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، المتفوقة على روسيا في كل شيء بشكل كبير جداً، والاستثناء الوحيد الذي يمكن لروسيا المنافسة فيه لتأمين مجالها الحيوي هو القوة العسكرية التي تسعى واشنطن إلى تحييدها من خلال تطويقها بحلف الناتو من كل مكان، وهو ما يفقدها عامل الردع، حيث في حال نشوب أي حرب، أو التلويح بها، فإنها لن تطول الأراضي الأمريكية؛ وعليه فالتصعيد واستخدام القوة - إن لزم الأمر - هما السبيل المتاح لروسيا وفق هذه النظرية للتوصل إلى تفاهم مع أمريكا يمكنها في النهاية من التعاون معها في ظل علاقة متكافئة إلى حد كبير، أو بالأحرى دون الخشية من أن تتحول روسيا إلى نموذج ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية: دول قوية اقتصادياً، بلا قوة عسكرية، أو فاعلية سياسية، إلا أنها تمتلك قدرات تقنية، في

حين لا تمتلك روسيا هذه القدرات، وهو ما سيجعلها في وضع أضعف من تلك الدول.

قد تكون "عقدة التاريخ" لها دور رئيسي في خلق هذه الفلسفة، وتعرض روسيا لهزائم وانكسارات تاريخية كثيرة عندما تقدمت الرفاهية بمعايير تلك الحقب الزمنية على تأمين المصالح الحيوية للدولة في الخارج، وأدت في النهاية إلى خسارتها كلا الأمرين معًا.

حسب اعتقاد الكرملين، الوقت الحالي يمثل فرصة مناسبة لبدء هذا التصعيد، وإنهاء الجزء الأخير المتبقي من آثار هزيمة عام 1991، وذلك عبر حسم ملف أوكرانيا، التي تمثل -وفق أحد كبار المنظرين المقربين من الكرملين؛ سيرغي كاراغانوف- مجرد مشكلة أمنية بحاجة إلى حل نهائي، للتفرغ بعد ذلك للتنمية الداخلية، وإعادة إعمار سيبيريا (انظر [مقال كاراغانوف: عقدة بوتين](#)).

أخيرًا، امتلكت أوكرانيا في السنوات السبع الماضية جيشًا حقيقيًا مختلفًا عما كان في 2014، وفعليًا أصبحت أقرب ما تكون إلى عضو في حلف الناتو؛ من خلال ما تحصل عليه من أسلحة وتقنيات غربية دون الحصول على العضوية، وتأجيل المواجهة، عبر "تخدير" روسيا بأن أوكرانيا لن تنضم إلى الناتو الآن، سيخلق وضعًا جديدًا يدفعها في النهاية إلى المواجهة بعدما تكون قدرات أوكرانيا العسكرية قد تعاضمت، وتصبح عصية على الإخضاع.

الصفقة الأمريكية-الروسية.. المستحيل الذي بات ممكنًا

يقول القائد والمؤرخ العسكري البروسي الشهير كارل فون كلاوزفيتز (Carl Philipp Gottlieb von Clausewitz)، في كتابه «عند الحرب»: "رجل الدولة الذي يعرف أن كل الأدوات اللازمة لديه جاهزة، ويرى أن الحرب لا مفر منها، ويتردد في القيام بالضربة الأولى، مذنب بارتكاب جريمة في حق بلاده". هذا بالضبط خلاصة خطاب فلاديمير بوتين، الذي

أعلن فيه يوم الخميس 24 فبراير (شباط)، بدء العملية العسكرية في أوكرانيا، مذكراً بالخطأ التاريخي الذي ارتكبه الزعيم السوفيتي يوسف ستالين، بعدم المبادرة بتوجيه الضربة الأولى إلى ألمانيا⁴².

پوتين وألمانيا قصة عشق، شأن كثير من النخب الروسية عبر التاريخ، ورغم الحروب التي حدثت بين البلدين، ظل هناك تقدير وحب قد يصل إلى حد الهوس لدى غالبية القادة الروس تجاه كل ما هو ألماني، وهي حالة يمكن وصفها بالألمانوفيل (Germanophile)⁴³. كان بطرس الأكبر (1672-1725) أول أباطرة روسيا، الذي بنى المدينة التي ولد فيها پوتين (سانت بطرسبورغ)، لديه هوسه الخاص بألمانيا، وهو ما دفعه إلى تشجيع الألمان على الاستيطان في روسيا، وبناء حي خاص بهم في موسكو، ارتبط فيه بحبه الوحيد مع الألمانية أنا مونس (Anna Mons)، وكان يتمنى الزواج بها لولا أن التقاليد السائدة آنذاك منعت من ذلك، وظل على علاقة بها عشر سنوات. وكما يذكر الأديب السوفيتي أليكسي تولستوي (1883-1945)، في روايته «بيوتريرفي»، أي بطرس الأكبر، فقد نصح الأخير النبلاء الروس بالزواج بألمانيات⁴⁴، كما أن أحد أعظم أباطرة روسيا، الألمانية صوفي فريدريك أوغست (1729-1796)، التي أصبحت كاترين الثانية، أسست مستوطنة «ألمان فولغا»، التي أصبحت بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917، تسمى «جمهورية فولغا الاشتراكية السوفيتية الألمانية الذاتية الحكم»، وتم حلها عام 1941، على إثر الاجتياح النازي لروسيا. يتقن پوتين اللغة الألمانية، ويتحدث بها بطلاقة، وفي درسنا بألمانيا الشرقية عمل لصالح الاستخبارات السوفيتية، وعندما تولى السلطة عام 2000، ألقى أول خطاب خارجي له في البوندستاغ الألماني "البرلمان الاتحادي" عام 2001، وجه فيه حديثه إلى النواب الألمان

42 تسجيل كامل لخطاب الرئيس بوتين الذي أعلن فيه إطلاق العملية العسكرية في دونباس - روسيا اليوم - 25 فبراير 2022،

https://www.youtube.com/watch?v=Go-V_wXqYWU&t=92s

43 ألمانوفيل (Germanophile): حالة من العشق والحب والتقدير لكل ما هو ألماني في ثقافتها وتاريخها ولغاتها وأدبها ومطبخها ومجتمعها وتطورها الحضاري والصناعي، وهي حالة غير مرتبطة بكون المرء ألمانيًا، بل في العادة يكون أجنبيًا متيمًا بألمانيا

44 Петр и Прасковья – молодожены поневоле - Кирилл Брагин - Русская планета - 6 февраля, 2018, <https://rusplt.ru/sub/history/petr-praskovya-molodojenyi-32831.html>

باللغة الألمانية⁴⁵، وطرح فيه حلمه وحلم من سبقوه من القادة الروس، بعقد تحالف روسي-ألماني، كمقدمة لمشروع "أوروبا الكبرى" (Greater Europe)، أو ما يسمى «محور لشبونة-فلاديفوستوك»؛ الأراضي الشاسعة الروسية، ومواردها الطبيعية اللامتناهية، وقدراتها العسكرية والنووية، وشعبها المستعد للعمل والكفاح في ظروف صعبة يتحد مع العقلية الألمانية المبدعة، والتقنية والقدرة التصنيعية المتفردة، لخلق مساحة اقتصادية من الضفة الأوروبية إلى المحيط الأطلسي في لشبونة، حتى الضفة الآسيوية للمحيط الهادئ في روسيا، وبناء منظومة أمن جماعي مشتركة.



خريطة مشروع محور لشبونة فلاديفوستوك

مرت السنوات، وأدرك بوتين أن مشروعه لا يمكن أن يتحقق؛ لعدة أسباب، أهمها وجود فيتو أمريكي، ورغبة في توسيع حلف الناتو ليشمل كل المحيط السوقياتي السابق، وهو ما يجعل روسيا في موقع ضعف، لكن موسكو تريد التكامل والوحدة مع أوروبا من مركز الند، لتعوض ضعفها الاقتصادي والتقني بمساحتها الضخمة، وعدم وجود شواغل أمنية تهددها بالقرب من حدودها، وتبعية هذا المحيط لها، لأن تعيد ضمه إليها، وهو ما يعني ألا تكون

⁴⁵Putin im Bundestag 2001 - Wladimir Putin am 25.09.2001 im deutschen Bundestag, <https://www.youtube.com/watch?v=cOXTnVTGB4q&t=290s>

روسيا بمفردها؛ بل روسيا وخلفها كل هذه المنطقة الأوراسية، وهو ما دفع بوتين إلى إعلان نقيته على النظام العالمي الذي هيمنت عليه الولايات المتحدة بعد عام 1991، وذلك في خطابه الشهير في مؤتمر ميونخ للأمن عام 2007، وأبرز ما قاله في هذا الشأن: "ما العالم الأحادي القطب؟ بغض النظر عن أسلوب تزيين هذا المصطلح، فإنه يعني في النهاية شيئاً واحداً فقط من الناحية العملية: (إنه مركز واحد للسلطة، ومركز واحد للقوة، ومركز واحد لصنع القرار، هذا عالم لمالك واحد، وسيد واحد، وهذا الأمر مدمر في نهاية المطاف)، ليس فقط لكل من يقع في إطار هذا النظام، ولكن أيضاً للمالك نفسه؛ لأنه يدمره من الداخل، وهذا بالطبع لا علاقة له بالديمقراطية؛ لأن الديمقراطية، كما هو معروف، (هي رأي الأغلبية، مع مراعاة مصالح الأقلية). في الشؤون الدولية، هناك رغبة أكثر فأكثر في حل هذه القضية المتعلقة بالنظام الدولي. وهذا الأمر بالطبع خطير جداً؛ لأنه لا أحد بات يشعر بالأمان بعد اليوم. أريد أن أؤكد لكم مرة أخرى، لا أحد يشعر بالأمان! لأنه لا يمكن لأحد أن يستند إلى القانون الدولي كجدار حجري. هذه السياسة بالطبع ستكون محفزاً إلى سباق تسلح، حيث بات من الواضح أن الناتو يدفع قواته المتقدمة إلى حدود دولتنا، ونحن، عبر الالتزام الصارم بالمعاهدات، لا نرد بأي شكل من الأشكال على هذه الإجراءات. أعتقد أنه من الواضح أنه لا علاقة لعملية توسيع الناتو بتحديث الحلف نفسه، أو بضممان الأمن في أوروبا، على العكس تماماً، فهذا التوسيع عامل استفزاز خطير، يقلل من مستوى الثقة المتبادلة، ولدينا الحق العادل في السؤال: هذا التوسيع ضد من؟ وماذا حدث للتأكدات التي قدمها الشركاء الغربيون بعد حل حلف وارسو؟ أين هي الآن تلك التصريحات؟ لا أحد يتذكرها. روسيا دولة لها تاريخ يعود إلى أكثر من ألف عام، ودايماً تمتعت بشرف اتباع سياسة خارجية مستقلة، ولا ننوي أن نغير هذا التقليد اليوم"⁴⁶.

⁴⁶Выступление и дискуссия на Мюнхенской конференции по вопросам политики безопасности - Президент России - Мюнхен - 10 февраля 2007 года,
<http://kremlin.ru/events/president/transcripts/24034>

لم يستمع أحد في الغرب إلى ما يمكن وصفها بـ "صرخة" بوتين، وأوروبا لا حول لها ولا قوة، ولا تقوى على المضي قدماً في مشاريع كبرى كهذه ستغير خريطة العالم الجيوسياسية والاقتصادية، بدون موافقة أمريكية، والأخيرة لا ترى في روسيا سوى بلد مهزوم جيوسياسياً وأيديولوجياً في الحرب الباردة، وذي اقتصاد ضئيل الحجم يعتمد على مبيعات الغاز والنفط، ولا يحق له أن يطالب بالمساواة في العلاقة مع أمريكا.

تقدمت جورجيا وأوكرانيا بطلب الانضمام إلى حلف الناتو في قمة بوخارست عام 2008، وأعقب ذلك في العام نفسه أول تدخل عسكري روسي خارج أراضيها منذ تفكك الاتحاد السوفيتي، عبر قبول استقلال أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا من جورجيا، ومع الوقت فقد بوتين إيمانه بمشروع "أوروبا الكبرى" لصالح مشاريع بديلة، مثل الاتحاد الأوراسي، أو "آسيا الكبرى"، ربما أفضل من رصد معالم هذا التغير في التوجهات الجيوسياسية، وما يمكن وصفه بـ "اليأس" الروسي من عقد شراكة سلمية مع الغرب، هو البروفيسور ديميتري ترينين (Dmitri Trenin)، مدير مركز كارنيغي موسكو، عام 2015، وما كتبه في دراسة مهمة بعنوان «من أوروبا الكبرى إلى آسيا الكبرى.. الوفاق الصيني الروسي»⁴⁷.

تشير "العملية العسكرية" الروسية الأخيرة، والاستعداد بالتضحية بالعلاقة مع أوروبا، إلى وصول روسيا إلى قناعة مفادها استحالة إقامة علاقات روسية-أوروبية بمعزل عن الولايات المتحدة، وأنه لا أمل في أوروبا "مستقلة" عن واشنطن، وبدلاً من إضاعة الوقت مع "الوكيل"؛ فإن علينا أن نتعامل مباشرة مع الأصيل الأمريكي، وهو ما سبق أن أشار إليه الكاتبان الروسيان المرموقان والمقربان من الكرملين، سيرغي كاراغانوف وفيدودور لوكيانوف. باختصار، "أوروبا بلا أمريكا لا تساوي شيئاً"، ولا ينبغي لموسكو "إضاعة الوقت معها". كذلك تشير "العملية العسكرية" إلى نهاية أي تطلعات روسية باتجاه الوحدة مع أوكرانيا على غرار بيلاروس، والتعامل مع هذا البلد كمشكلة أمنية لا بد من التخلص منها من

⁴⁷From Greater Europe to Greater Asia? The Sino-Russian Entente - By: DMITRI TRENIN
- Carnegie Moscow Center - APRIL 09, 2015,
<https://carnegiemoscow.org/2015/04/09/from-greater-europe-to-greater-asia-sino-russian-entente-pub-59728>

خلال إجراء جذري مرة واحدة وإلى الأبد، وبعدها إما أن يتم تقسيمها، وإما أن تترك خربة للغرب يفعل فيها ما يشاء، لا يهم ما دامت لن تنضم إلى الناتو، وتم تدمير بنيتها العسكرية. يطرح التصور السابق سؤالاً عن التوجه الروسي الجديد. قد يبدو الخيار الصيني هو الإجابة النموذجية عن هذا السؤال، لكن الأمور لا تبدو هكذا. ما يجمع بكين وموسكو علاقة خاصة على مستوى زعمي كلا البلدين، ورغبة مشتركة في حصول كل منهما على مساحة أمنية خاصة في محيطه الإقليمي، وإدراك كل طرف أن سقوط أي منهما أمام الغرب يعني أنه سيكون الهدف التالي. خلافاً لذلك، تسود مشاعر الشك والريبة، والاختلافات في المواقف، وصولاً إلى التخوفات من المستقبل، بين الطرفين، وقد يكون أفضل من وصف هذه العلاقة، هو البروفيسور الروسي أندري فورسوف، حين قال: "الصين حليف تكتيكي لروسيا في حالتها ووضعها الراهن، لكن من حيث المبدأ، أي دولة كبرى مثل الصين، وعلى حدودنا، هي تشكل تهديداً، لا سيما أن لديها هذا العدد الضخم من السكان، مع وجود فائض من الذكور الذين يعانون مشكلات اقتصادية، ويحيطون بالحدود مع روسيا التي يبلغ طولها (4200) كم، التي تعاني ضعفاً سكانياً؛ لذلك يجب أن نعمل على أساس الحكمة الثابتة: (نحن شعب مسالم، لكن قطارنا المدرع يقف على جانب الطريق).

كذلك، لا يحظى التحالف مع الصين بشعبية في روسيا، والتخوفات أكبر بكثير من التطلعات "المشرقة" للتعاون بين البلدين، وقد بدا من خلال ردود الفعل الصينية الأخيرة أنها مستعدة لمساندة روسيا بما يضمن عدم انكسارها أمام العقوبات الاقتصادية الغربية، ولكنها ليست مستعدة للمضي قدماً معها إلى آخر الطريق لفرض شكل النظام العالمي الجديد كما تسعى موسكو، وهو ما ظهر واضحاً في كتابات عدة مفكرين روس، حيث كتب البروفيسور ألكسندر لومانوف، الأستاذ في العلاقات الدولية، في مقال بعنوان «الغرب يريد أن يوقف تطور أي دولة قادرة على وضعه في تحد اقتصادي أو جيوسياسي»، جاء فيه: "لن تقدم الصين على أي تحدٍ يستفز الغرب، بالنظر إلى المصالح الاقتصادية الكبرى، ولكسر شي جين بينغ التقليد الخاص بالحزب الشيوعي الصيني في ربيع عام 2023، من خلال

البقاء لفترة رئاسية ثالثة". أما ما يخص مسألة فقدان الثقة المتبادلة، فقال لومانوف: "عندما نتحدث نحن الروس إلى الخبراء الصينيين، ونقرأ ما يكتبونه، سنجد أنهم خائفون جدًا من انتقال روسيا إلى المعسكر الغربي وترك الصين وحدها. تستند هذه الفرضية إلى التفكير الحضاري، وهي حقيقة أن روسيا تنتمي إلى الحضارة المسيحية الغربية، ولقربها من أوروبا وثقافتها". كما رأى أن سبب الشك المتبادل بين الصين وروسيا يعود إلى "الرهاب السياسي المتبادل من (صفقة) ماو تسي تونغ ونيكسون، التي تركت جرحًا عميقًا في الذكريات التاريخية للنخبة السياسية والفكرية في بلادنا، التي لم تتوقع هذا المنعطف الحاد المناهض للسوقية من جانب زعيم الحزب الشيوعي الصيني. في الوقت نفسه، تخشى الصين أن يتكرر السيناريو نفسه تقريبًا، عبر صفقة بين روسيا والولايات المتحدة، تؤدي إلى نقطة التحول نفسها، أي طبعة جديدة من (صفقة) ماو تسي تونغ ونيكسون، لكن هذه المرة موجهة من روسيا". وعن آثار تلك "الصفقة الروسية-الأمريكية" إذا حدثت، يعلق لومانوف: "إذا عادت روسيا إلى المسار القديم للاندماج مع الغرب، فإن الوضع الجيوسياسي للصين سوف يزداد سوءًا بشكل ملحوظ"⁴⁸.

مرة أخرى، نحتاج إلى العودة إلى المؤرخ البروسي كارل فون كلاوزفيتز، ومقولته "هناك حالات يكون فيها أكبر قدر من الجرأة هو أعظم درجات الحكمة"، ويبدو أن بوتين، الذي يملك خليطًا عجائبيًا من التصورات والأفكار، مؤمن بهذه المقولة. تخرج بوتين في كلية الحقوق بتفوق، ليصبح رجل قانون، ولكنه عمل بدلًا من ذلك في وكالة أساس عملها السرية، ومخالفة كل الأسس القانونية، لديه إيمان عميق بما تسمى "روسيا المقدسة"، وقيمها ودورها التاريخي في استعادة وحدة السلافا- حسب كاتبه المفضل دوستويفسكي- ويؤمن بالقيم المحافظة القيصرية، ولكنه على المستوى الجيوسياسيسوقيتي. ربما أفضل من وصف شخصية بوتين، وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، عندما قال عنه:

⁴⁸«Запад хочет остановить развитие любой страны, которая способна бросить ему экономический или геополитический вызов» - АЛЕКСАНДР ЛОМАНОВ - Россия в глобальной политике - 03.03.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/zapad-hochet-ostanovit/>

"إنه شخصية تشبه إلى حد بعيد نمط تفكير دوستويفسكي، حيث يتمتع بإحساس كبير بالارتباط والاتصال الداخلي بالتاريخ الروسي"⁴⁹.

يجمع بوتين بين كل ما سبق، وعشقه للثقافة الألمانية والأمريكية، وبعدهما فقد أمله في أي تحالف مع أوروبا وألمانيا على وجه الخصوص، ونتيجة عدم الثقة المتبادلة والاختلاف في التطلعات مع الصين، فإن أمريكا هي خيار النخب الروسية، وعلى رأسها بوتين، الذي لا يريد هدم النظام العالمي، ولا تحويل روسيا إلى قطب يتشارك مع أمريكا حصرًا قيادة العالم وفق نظام ثنائي القطبية على غرار الحرب الباردة، ولا الدخول في مواجهة مفتوحة معها؛ الاتحاد الروسي ليس الاتحاد السوفيتي، فلا وجود لأي أيديولوجية أممية يبشر بها، ولتأكيد هذا الاختلاف أغرق بوتين في خطاباته الأخيرة عكس تحفظه المعتاد في نقد البلاشفة، وعلى رأسهم لينين وستالين، ورؤيتهم للعالم، وأيديولوجيتهم، في رسالة إلى "الشركاء" الأمريكيين كما يسميهم، بأنه يختلف تمامًا عن السوفيت، فكما كان القرنان السابع عشر والثامن عشر قرنين ألمانيين بامتياز في تأثيرهما في الثقافة الروسية، ونخبة المجتمع، وكان القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين فرنسيًا، فإن القرن الحالي أمريكي؛ فالروس يحبون أمريكا وفنونها وثقافتها ربما أكثر من الأمريكيين أنفسهم، لعل الخلاف بين الطرفين بشأن مسائل محدودة، مثل المثلية، والديمقراطية الليبرالية، وغيرها من القيم التحررية التي يتبناها في العادة "اليسار الجديد"، أو "التقدميون". خلافاً لذلك، فيمكن القول إن القرن الحادي والعشرين في روسيا على المستوى الثقافي قرن أمريكي بامتياز.

إذن نحن أمام فرضيتين؛ الأولى: مشروع زبغنيو بريجينسكي، القائم على "الضغط الأقصى" على روسيا، الذي وصل بالفعل إلى حزمة من العقوبات التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ، حتى مع كوريا الشمالية وإيران، والدخول في معركة تكسير عظام وصولاً إلى تقسيم روسيا. والثانية: مشروع هنري كيسنجر، فلنمنح روسيا ما تريد في محيطها الإقليمي، ولننوحد معًا

⁴⁹Henry Kissinger says "I hope we're doing some hacking" in Russia - By: REENA FLORES - CBS News - DECEMBER 18, 2016, <https://www.cbsnews.com/news/henry-kissinger-hacking-russia-donald-trump/>

لمواجهة الصين. إشكالية هذا المشروع هي تطبيقه بالطريقة نفسها التي طبق بها كيسنجر المشروع ذاته، ولكن بشكل عكسي، "التحالف مع الصين ضد روسيا السوفيتية"، وما سيترتب على ذلك من خسارة للسمعة والمصدقية الأمريكية أكبر من أي مكاسب، وهنا يأتي دور التصعيد إلى حد الخراب الاقتصادي الذي سيطول أوروبا أولاً، والتدمير الكامل للبلدان السوفيتية الراغبة في الانضمام إلى الناتو (أوكرانيا نموذجاً)، وصولاً إلى لمس الزر النووي وإمكانية كبسه. وفي هذه الحالة تطبق "صفقة كيسنجر" بلا أي مسؤولية أخلاقية تطول واشنطن وسمعتها، حيث سيطلب منها الأوروبيون، والأوكرانيون، والعالم أجمع، عقد صفقة مع موسكو لتجنيب البشرية ما هو أعظم، وفي هذه الحالة تبدأ التفاهات التي تبدو مستحيلة بين الطرفين.

هل الأكثر خطراً على السيادة والمكانة الأمريكية، الصين بما تمتلكه من قدرات، أم روسيا التي تحتاج إلى أمريكا لتساعدتها على الاستفادة من ثرواتها القادرة على رفع قوارب الاقتصاد الأمريكي إلى الأعلى في ظل التراجع الاقتصادي الكبير الذي تعانيه؟ هل قوة الولايات المتحدة، في ظل وجود عامل الردع النووي، في قوتها العسكرية أم الاقتصادية؟ هل تستحق البلدان المتبقية من الكتلة الشرقية الدخول في صراع- قد يصل إلى حرب نووية- تستفيد منه الصين، أم الأفضل هو التوجه نحو الأخيرة؟ هل يترك المجال للصين لتمضي في مشروعها الطموح "الحزام والطريق"؟ وهل ينفع معها أي ضغوط إذا تم هذا المشروع؟ وما دور روسيا حيث تمر جميع القطارات الناقلة للبضائع إلى أوروبا عبرها، أو عبر البلدان الواقعة تحت نفوذها؟ هل وجود روسيا في نظام عالمي جديد، وهي قوة يمكن السيطرة عليها، ومسيحية قريبة من الغرب، أفضل؟ أم نظام تكون فيه الصين الآسيوية شريكاً رئيسياً، وهي البعيدة كل البعد عن الغرب مقارنةً بروسيا؟

من جديد، يقول كارل فون كلاوزفيتز: "موهبة الإستراتيجي تكمن في تحديد النقطة الحاسمة، وتركيز كل قوته وإمكاناته عليها؛ ومن ثم سحب قوته من الجبهات الثانوية،

وتجاهل الأهداف الأقل". عبر ما يحدث الآن بين الاتحاد الروسي والولايات المتحدة، يمكن ملاحظة التالي:

- دخلت أوروبا مرحلة "الغسق الطويل" بعد عقود من النمو الاقتصادي الكبير الذي بدأ منذ عام 1948، عندما بدأ مشروع مارشال الأمريكي، وفقدت كل آمالها وتطلعاتها المبنية على تعاضم قوتها الاقتصادية في انتهاج أي سياسة استقلالية عن القرار الأمريكي، ويمكن الآن حشدها خلف واشنطن بلا أي مقاومة لمواجهة الصين بعد فترة من التردد والتمنع، واستعادة الاعتدال في الميزان التجاري المختل لصالحها في علاقتها الاقتصادية مع واشنطن.
- حلف الناتو، الذي وصفه الرئيس الفرنسي بأنه "ميت دماغياً"، أصبح لاغنى عنه لأوروبا، وبدلاً من الاستثمار الفاشل في بناء جيوش وطنية، يمكن ضخ هذه الأموال داخل الحلف—لقد تحقق ما أراده ترمب بشكل أكبر على المستوى المالي، وبطريقة أنيقة كما تقتضي القواعد الأمريكية المهدبة للحزب الديمقراطي.
- الرأسمالية التي عمت الكوكب بكامله، ولم يعد هناك جدل أو خلاف بشأنها، حققت كل أهدافها التقليدية التي دعت إليها، وبحاجة إلى إعادة تجديد شاملة، ومشروعات إعادة إعمار جديدة، وبناء تحالفات وشركات مختلفة عن الحالية، وشركاء جدد، ولدى روسيا من الثروات والإمكانات في المحيط الأوراسي ما هو قادر على استعادة شبابها وتجديدها، دون حروب ضخمة مدمرة.
- التحالف الأنجلوسكسوني (الأمريكي-البريطاني) أثبت أنه التحالف الحقيقي الوحيد داخل المنظومة الغربية الذي يمتلك القدرة والجرأة والمبادرة، وكان خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي إعلاناً عن نظام جديد يتشكل، ستمتع فيه بريطانيا بدور أشبه ما يكون بـ "العضو المنتدب" الممثل لرئيس مجلس الإدارة الأمريكي في إدارة شؤون القارة الأوروبية، ومنطقة المحيط الهادئ مع الكومنولث البريطاني السابق.



● تقاسم جديد للنظام العالمي، يكون فيه لروسيا الدور الرائد في المجال ما بعد السوفييتي أو الأوراسي، وخضوع ونبؤذ كامل أمريكي-بريطاني على أوروبا، دون أي منافسة روسية، واحترام متبادل لمصالح كل طرف، وعدم التعدي على منطقة نفوذه، وفي المقابل تعهد روسي بعدم ضم أي دولة في محيطها، والاكتفاء بالنبؤذ السياسي والأمن، على غرار العلاقة الروسية مع بيلاروس، أو كازاخستان، واستثمار أمريكي بريطاني مشترك، وبجوارهما اليابان وكوريا الجنوبية وأستراليا وكندا في روسيا. ثقل كهذا، قادر على وضع الشروط المناسبة لضبط تقدم الصين، دون الحاجة إلى خوض صراع معها.

قد يبدو هذا السيناريو مستحيلًا، ولكن كثيرًا من المستحيلات أصبح ممكنًا، ولكي يحدث لابد من تصعيد خطير لا يقوى الآخرون على تحمله—إما هذا، وإما أن نكون أمام صراع صفري، لا مجال فيه لانتصار طرف على الآخر دون عواقب كارثية.

الاستنتاجات

تبدو "العملية العسكرية" الروسية في أوكرانيا، أنها كانت أمرًا لا مفر منه، بعدما تحول الوقت وتجميد الصراع من عامل إيجابي لصالح موسكو وحلفائها إلى عامل سلبي، حيث تمسك الغرب وحكومة كييف باتفاقية مينسك، ولكن دون تطبيقها، لتعزيز قوة أوكرانيا العسكرية، وعلى الرغم من استبعاد انضمامها إلى الناتو، فإنها باتت تتمتع بالفعل بكل مزايا الحلف، من مساعدات عسكرية، وتقنية، وتدريبية، وهو ما يعني بالنسبة إلى موسكو أن تقبل- في النهاية- تعديلات اتفاقية مينسك، أو تدخل في صراع مسلح سيكون شديد الصعوبة، وربما تكون أوكرانيا ذات قدرات نووية بعدما ألحح إلى ذلك الرئيس زيلينسكي.

إعلان موسكو "العملية العسكرية"، يعني فقدانها الأمل- وبشكل لا رجعة فيه- في إمكانية استيعاب أوكرانيا بالوسائل السلمية عبر الضغوط أو الإجراءات الاقتصادية، وصعوبة وصول حلفائها إلى السلطة أو تشكيلهم لأي ثقل موازٍ في أي انتخابات قادمة بعدما تم إقصاء كل من له علاقة بروسيا من العملية السياسية.

حسب المقربين من الكرملين، ومن يمكن وصفهم بأنهم "نواقل" لأفكاره عبر كتاباتهم، تحولت أوكرانيا إلى مشكلة أمنية، وتم الاستغناء تمامًا عن أي أفكار لإقامة وحدة معها، أو علاقة خاصة، كما هي الحال مع بيلاروس، أو كازاخستان، وبعض بلدان آسيا الوسطى؛ ولذلك لم يعد من المهم لموسكو اجتذاب قلوب الأوكرانيين، أو الخشية من خسارة العلاقة الشعبية معهم، التي حدثت بالفعل بعد "العملية العسكرية" الأخيرة.

تحولت أوكرانيا إلى ساحة للصراع بين روسيا من جهة، والولايات المتحدة من جهة أخرى. ربما الخطأ الأكبر الذي وقعت فيه القيادة الأوكرانية هو خرق التوازنات التي حرص على الحفاظ عليها قادة أوكرانيا السابقون منذ تفكك الاتحاد السوفيتي، وتحولها بشكل كامل باتجاه الغرب، وتبني قوانين عدائية استفزت موسكو؛ على سبيل المثال ما يسمى "قانون الشعوب الأصلية في أوكرانيا"، الذي اعتبر كل ذوي الأصول الروسية ليسوا من شعوب

أوكرانيا، ولا يحق لهم التمتع بميزات خاصة فيما يخص اللغة والثقافة على سبيل المثال، وكذلك قوانين حظر استخدام اللغة الروسية في المعاملات اليومية، وتطبيق غرامة على المتحدثين بها، وإلزام جميع موظفي الدولة باستخدام اللغة الأوكرانية حصراً، وإمهالهم عامًا لتعلمها، واختبار مدى قدرتهم على التحدث والكتابة بها، ومن لا يتمكن من ذلك يتم فصله من العمل، وتغيير أسماء المدن التاريخية التي بناها القياصرة الروس، وكذلك أسماء المواطنين، للتوافق مع النطق الأوكراني لا الروسي، ونصب تماثيل في الميادين العامة لقادة منظمة القوميين الأوكرانيين المتعاونة مع النازيين، وتسمية مدن بأسمائهم، وتكريمهم ومنحهم أوسمة "بطل أوكرانيا"، إلى جانب سعيها الدؤوب للانضمام إلى حلف الناتو، وعدم حصولها على ضمانات من الغرب لدخول هذه المواجهة، أو طلب ضمانات بعدم "اعتداء" روسيا على سيادتها مقابل التخلي عن طلب الانضمام إلى الحلف، وتصريحات الرئيس زيلينسكيغير المسؤولة عن الرغبة في الحصول على أسلحة نووية، وغلق مصانع محركات الطيران والسفن التي يعتمد عليها الجيش الروسي في إطار التكامل بين البلدين، وخلق قطيعة شاملة مع كل ما هو روسي. كان لكل هذه الإجراءات دورها في تعبئة الرأي العام الروسي، ومنح الكرملين جميع المبررات للتدخل العسكري الأخير.

أصدرت عدة هيئات وتجمعات سياسية ونقابية روسية، بيانات ترفض فيها أي صدام مسلح مع أوكرانيا، قد يبدو من بعيد أن هذه البيانات وموجة الرفض دليل على رفض "الحرب"، وأن الشارع الروسي ضد الكرملين، وانتظار قيامه بانتفاضة شعبية بعد تطبيق العقوبات الاقتصادية، ولكن لفهم الأمر بشكل أفضل، ووضعه في سياقه الحقيقي، بعيداً عن التخيلات غير الدقيقة والمبنية على التمنيات، أو الفهم المغلوط للعقلية الروسية، نقول إن: "رفض الروس أي صدام مسلح مع أوكرانيا نابع من إيمانهم العميق برواية الكرملين أن أوكرانيا كيان مصطنع، وجزء لا يتجزأ من روسيا"؛ وعليه فإن أي صدام مسلح قد يتحول إلى حرب مع هذا "الجزء الروسي"، هو حرب أهلية بين سكان ومواطني بلد واحد "تفرقوا في دولتين، وحثماً سيعودون من جديد ليجتمعوا في دولة واحدة"، ولا يعني هذا الرفض

إيماناً بحق أوكرانيا في اختيار تحالفاتها الخارجية، ولا وجود لخلاف بشأن هذه المسألة بين جميع الأحزاب والنشطاء الروس من أقصى اليمين إلى اليسار، يكفي أن نعلم أن المعارض الروسي المفضل لدى الغرب أليكسي نافالني، عندما طرح عليه الأوكرانيون سؤالاً عن موقفه من انضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو، وإعادة شبه جزيرة القرم إليها إذا أصبح رئيساً لروسيا، أجاب بشكل قطعي: "على الأوكرانيين ألا يخدعوا أنفسهم بالأوهام. القرم كانت ومازالت وستظل روسية، ولا يمكن أن تصبح أوكرانيا عضواً في حلف الناتو"⁵⁰؛ لذلك فإن أي معارضة ظهرت وستظهر للعملية العسكرية تعني بالنسبة إلى الروس غير ما تعنيه للغرب، وقد يكون من الخطأ بناء فرضيات يمكن أن تؤدي إلى تغيير داخلي.

التصور الروسي، الذي بدأ أكثر وضوحاً، هو إعادة بناء ما يسمى "العالم الروسي"، الذي وضع أسسه الفكرية في التسعينيات من القرن الماضي الفيلسوف بيوترشدروفيتسكي، ويتبناه الخطاب السياسي الروسي الآن رسمياً، والذي يدعي وجود "عالم" روسي ثقافي في جوارها القريب بُني عبر "حضارة" روسية، لا بد من استعادتها من جديد⁵¹، وهو ما يعني بدء مرحلة جديدة من التقدم الاقتصادي، أي بداية النموذج الروسي، على غرار ما بدأ في الصين منتصف السبعينيات مع إصلاحات دينج شياو بينغ، ولكن في الحالة الروسية، يبدأ هذا الإصلاح بعد تصفية مشكلة أوكرانيا الأمنية، والتوجه نحو إعمار الشرق الأقصى وسيبيريا، واستعادة الفضاء المجاور لروسيا الذي كان تحت سلطتها منذ زمن القيصرية، لا لضمه إليها، فهذا الأمر عبء عليها، وقد جربت هذا النمط من قبل، وأدى - من ضمن عدة أسباب أخرى - إلى تفكك الإمبراطورية السوفيتية، ولكنها تريد إبقاء هذه الدول مستقلة كما هي بحدودها الحالية، شريطة أن تدور في فلك موسكو ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، تماماً كما تحدث بوتين مع الرئيس الجورجي الأسبق ميخائيل ساكاشفيلي، بعد طلب جورجيا الانضمام إلى الناتو، عندما قال له: "يمكنك التمتع بوحدة أراضيك، أو يمكنك الحصول

⁵⁰Алексей Навальный и украинцы - Виталий Портников - Радио Свобода - 09 февраля 2021, <https://www.svoboda.org/a/31086696.html>

⁵¹АЛЕКСАНДР КОЛБИН - Россия в глобальной политике - 12.01.2022, <https://globalaffairs.ru/articles/prostranstvo-bezopasnosti/>

على عضوية في الناتو، لكن لا يمكنك الحصول على كليهما، عليك وحدك أن تختار⁵². لا تسعى موسكو إلى عالم ثنائي القطبية، ولا إلى أممية دولية جديدة مبنية على فكرة أيديولوجية على غرار الاتحاد السوفيتي الاشتراكي مقابل الولايات المتحدة الليبرالية؛ بل إلى "عالم روسي"، في منطقة نفوذ في جوارها الإقليمي، مقابل "عالم صيني"، وآخر "أوروبي"، وأن تظل الولايات المتحدة صاحبة المكانة المميزة قيادياً في هذا الشكل الجديد للعالم، لا السعي نحو إزاحتها من مركز الصدارة، وعلى واشنطن أن تختار بين: "عالم تتمتع فيه روسيا بمنطقة نفوذ في جوارها التاريخي لكي يتحد مع أمريكا، ويدخل في شراكة اقتصادية معها، بما تمتلكه روسيا من موارد ضخمة، وإعادة بناء وإعمار منطقة أوراسيا، أو عالم بلا روسيا المسيحية البيضاء، تهيمن عليه الصين الآسيوية، ينازع الولايات المتحدة مركز الصدارة الاقتصادية". لا يعني هذا أن روسيا تطرح فكرة التحالف لمواجهة الصين وإسقاطها؛ بل لوضع حدود- بالتعاون مع أمريكا- للتمدد الصيني، وبناء نظام عالمي يكون فيه الغرب، بقيادة أمريكا ومعها روسيا، شريكاً في مركز القيادة، وللصين وغيرها من القوى دور يضمن عدم خروج الهيمنة من نطاق هذا الغرب المسيحي، ويحدد فيه كل طرف مصالحه، ويحترم في المقابل مصالح الطرف الآخر، مع وضع حدود للقوى الصاعدة لكبحها وحمايتها من نفسها مثل الصين؛ هذا هو التصور الروسي، بعيداً عن التصورات التي يفترضها "المؤيدون" أو "الكارهون" لروسيا، المنتمة (أي تلك التصورات) في أغلبها إلى تراث الماضي، والخبل الأيديولوجي المسيطر على عقول البعض الآخر.

مقابل هذا التصور الروسي، يوجد خيار آخر تحذر منه؛ وهو اضطرار روسيا آسفة إلى الارتواء التام في أحضان الصين، وعلى الولايات المتحدة أن تواجه قوة صينية ناعمة عبر الاقتصاد، وأخرى خشنة عبر القدرات العسكرية، وخسارة الغرب المسيحي لهيمنته عبر خسارة روسيا أولاً، ثم الغرب فيما بعد؛ هذه الفكرة تحديداً هي الدافع الرئيسي لمواقف القوى اليمينية الجديدة في أوروبا التي تسمى "اليمين المتطرف" في فرنسا وألمانيا وبعض الأطراف في

⁵²The Back Channel - William J Burns - Page 197.

أمريكا، تجاه موقفهم الذي يبدو مؤيداً لروسيا، وعلى أساس هذه الرؤية التي تطرحها عليهم موسكو يعتقدون أن الغرب مع موسكو أفضل من الغرب بلا موسكو مقابل الصين.

"العملية العسكرية" الروسية ستمضي حتى تحقق جميع أهدافها، ولا يبدو أن هناك أي إمكانية لدى الكرملين - حتى لو أراد - لإيقافها، مهما بلغت الخسائر البشرية أو الاقتصادية؛ فإيقاف العملية دون تحقيق أهدافها، يعني تغييراً كاملاً للبنية السياسية الروسية، وربما وضع مستقبل روسيا ووحدها على المحك؛ ولذلك اكتسب الصراع الآن صفة الوجودية.

تراهن موسكو على عامل الزمن فيما يخص العقوبات الاقتصادية، وما يمكن تسميته "الأفضلية" المؤقتة للديكتاتورية مقابل الديمقراطية في كسبها هذه المعركة؛ في ألمانيا حكومة ائتلافية هشة، وفي فرنسا انتخابات رئاسية هي الأهم ربما في تاريخ الجمهورية الخامسة، وانتخابات تجديد نصفي للكونغرس في الولايات المتحدة، وللعقوبات تأثير سلبي أيضاً في الغرب، قدرة الروسي على تحمله أكبر من نظيره الغربي، والضغط التي ستمارس على السياسيين الغربيين ستكون كبيرة مقابل محدوديتها على النظام السياسي الروسي.

خاض الروس في أقل من 100 عام، ثلاث ثورات، وحرابين عالميتين، وحرابين أهليتين، وتفككت إمبراطوريتهم رغم اختلاف أيديولوجيتها مرتين: "ثورة 1905 - الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) - ثورة فبراير 1917 - ثورة أكتوبر 1917 - الحرب الأهلية (1917 - 1922) - عصر الإرهاب الكبير (1936 - 1938) - تفكك الاتحاد السوفيتي"، بالإضافة إلى فوضى التسعينيات، وغياب سلطة القانون، وحربي الشيشان (1994 - 2009)، وفي هذه المئة سنة فقط مرت بها كل هذه الأحداث التي فقدت فيها الملايين، إلى جانب عصر المجاعة السوفيتية (1932 - 1933)؛ ولذلك فإن التعويل على خروج شعب عاصر كل هذه الأحداث في أقل من قرن، ولا يتمتع برفاهية اقتصادية، وبفضل العقوبات الغربية التي بدأت منذ عام 2014، أصبح لديه اكتفاء ذاتي في غالبية السلع الغذائية، قد يبدو رهائياً في غير محله. ستؤثر العقوبات الاقتصادية بشكل كبير جداً في الاقتصاد الروسي الكلي، وهذه العقوبات هي الأشد تاريخياً على الإطلاق، ولكنها في جانب آخر أكدت رواية الكرملين للرأي

العام الروسي، وما يكتبه المحافظون الروس بعد خيبة أملهم في الغرب وقبوله لهم بعد تفكك الاتحاد السوفيتي "إنهم يكرهوننا لأننا فقط روس، لا لشيء آخر". أو كما قال الرئيس الأوكراني الأول ليونيد كرافتشوك: "فلسفة حياة الروس تعتمد حصراً على الوطن، الوطن الأم هو كل شيء بالنسبة إليهم- الإنسان أمام الوطن لا يساوي شيئاً". أو كما قال ستالين: "لقد تعود الروس القتال لأجل وطنهم، والموت، وتعودت النساء أن تلد أطفالاً جددًا، وهكذا تستمر روسيا، ويستمر الروس في الحياة"⁵³.

الرهان الغربي على انقلاب الأوليغارشية الروسية على الرئيس بوتين، قد يبدو منطقيًا جدًا بعد تجريد أغليبيتهم من أموالهم وامتيازاتهم في الغرب، ولكن ما يضعف هذه الاحتمالية هو سيطرة الكرمليين الكاملة عليهم، وانتقاؤهم بعناية بعد تصفية أوليغارشية الرئيس الأسبق بوريس يلتسن، وكرهية الشعب لهم، وهو ما لا يؤهلهم لخلق أي تغيير في الداخل، ووجود مجموعة عقائدية تدير القلب الصلب للدولة الروسية.

التصريحات الغربية فيما يخص تزويد أوكرانيا بالأسلحة، وإرسال متطوعين للقتال إلى جانبها، تحمل طابعًا دعائيًا أكثر منه عمليًا قابلاً للتحقق - أولاً: كيف ستصل كل هذه الأسلحة في ظل سيطرة الجيش الروسي على الأجواء الأوكرانية، وكذلك المنافذ البحرية؟ - ثانياً: إذا كانت لدى أوكرانيا مقاومة شعبية وميليشيات مسلحة وجيش، فما حاجتها إلى وجود متطوعين أجانب؟ - ثالثاً: دخول متطوعين أجانب سيمنح الرواية الروسية مصداقية أكبر في الداخل، سيتم تصوير الأمر بأنه يشبه جمع نابليون بونابرت جيشاً أوروبياً لغزو الأراضي الروسية عام 1812، وتصدي الروس له فيما يُسمى روسياً بـ «الحرب الوطنية»، أو بالاجتياح النازي وحلفائه من الأوروبيين عام 1941، وأن روسيا كما "تصدت للنازيين القدامى تصدى اليوم للنازيين الجدد"، وستجمع في المقابل متطوعين من تيارات اليسار

كرافتشوك: أصبنا بالتخلي عن السلاح النووي- أوكرانيا برس- 08 فبراير 2019، 53
<https://www.youtube.com/watch?v=MS5xYkldxkY&t=71s>

والمحافظين المناهضين لهم، وسيتترك الجيش الروسي هذه المعركة تدور على أراضي أوكرانيا بين أوروبيين من كلا الطرفين، وهو ما تحدثت عنه صراحةً عدة جهات روسية.

"العملية العسكرية" الروسية تمضي - حسب المحللين العسكريين الروس - ببطء، ووفق خطة ممنهجة للسيطرة على ما تسمى "أوكرانيا المفيدة"، وحصار المدن لعدم التورط في قتال شوارع، ولكن المشكلة التي يمكن أن تعترض هذا السيناريو، هي رفض الجيش والميليشيات المسلحة خروج المدنيين، وهو ما سيفرض على الجيش الروسي إما تزويدهم بالطعام ليظل الحصار مدة طويلة، وإما حصارهم وتجويبعهم، وهو ما يعني مزيداً من الحملة الإعلامية ضدها، وإما اقتحام المدن، مع ما سيؤدي إليه ذلك من خسائر كبرى.

مستقبل أوكرانيا كدولة يبدو أنه أصبح في حكم المجهول، ولكن يصعب جداً عودتها إلى ما كانت عليه قبل الرابع والعشرين من فبراير (شباط)، سكان إقليم دونباس، سقط منهم (14.000) قتيل، حسب تقديرات مجموعة الأزمات الدولية (International Crisis Group) في بروكسل، وغالبيتهم من الجزء المتمرد الموالي لروسيا⁵⁴، في حين تتحدث الإحصاءات الروسية عن (17.000) قتيل، منهم أكثر من (500) طفل. مشاعر الحقد والكراهية لدى الجزء المتمرد عالية جداً، ليس فقط ضد الحكومة في كييف، ولكن ضد بقية الشعب الذي لم يبادر بالضغط على الحكومة لوقف الحرب، وزاد هذا الشعور بعد موجة الدعم الغربي الكبيرة لأوكرانيا مقابل تجاهل الحديث عن قتلاهم، وكأنهم - حسب وصف أحدهم - "حيوانات لا قيمة لها"، وربما سيناريو تقسيم أوكرانيا على المدى المتوسط يكون الأكثر ترجيحاً، والمستفيد الأكبر منه ستكون بولندا، التي تقاسمت تاريخياً مع روسيا حكم هذا البلد، وبعد الأزمة الأخيرة زادت روابطها مع سكان المناطق الغربية، وكذلك المجر الطامحة في استعادة الجزء المجري من أوكرانيا الذي اقتطعه منها ستالين، ويمكن

⁵⁴Conflict in Ukraine's Donbas: A Visual Explainer - International Crisis Group, <https://www.crisisgroup.org/content/conflict-ukraines-donbas-visual-explainer>

العودة إلى تقرير سابق عن سيناريوهات مستقبل الدولة الأوكرانية، بعنوان «[المواجهة الروسية الغربية على حدود أوكرانيا](#)».

النظام السياسي والوضع الاقتصادي الروسي لم يعودا يتحملان البقاء، وبحاجة- حسب الخبراء الروس الذين تم ذكرهم في الدراسة أعلاه- إلى عملية تجديد وتغيير شاملة، وأياً ما كانت نتيجة الصراع الحالي، فإن روسيا مقبلة على تغيير داخلي كبير؛ فإذا خرجت منتصرة من هذه المعركة، سيحقق بوتين حلمه بأن يكون قد استعاد "عظمة" روسيا بعد 21 عامًا من حكمه، تمامًا كما فعل عرابه بطرس الأكبر، بعد قضاء المدة نفسها في الحكم، ويمكن العودة إلى تقرير سابق عن طموحات بوتين، بعنوان «[ديسمبر المشؤوم.. كيف أراد بوتين أن يغير قدر روسيا عبر أوكرانيا](#)»، وربما بعد ذلك يتنازل عن السلطة لخليفة له بعدما يكون قد حقق ما وعد به، أو يتكسر وضعه رئيسًا مدى الحياة؛ أما في حال الفشل، فإن كل الاحتمالات مفتوحة، وصولاً إلى الحديث عن مستقبل الدولة الروسية نفسها؛ ولذلك فإن كل الاحتمالات مفتوحة أيضاً في استخدام جميع الأسلحة منعاً لهذا السيناريو.

لدى روسيا كثير من أوراق اللعب في أوكرانيا، وهناك متعاونون بعضهم في موسكو يستعدون للحظة دخول الجيش الروسي العاصمة كييف، لإعلان خريطة طريق لحل الأزمة مع روسيا، ومنهم من يعمل داخل أجهزة الدولة، وينتظر الوقت المناسب ليعلن سعيه إلى التفاوض مع الروس لمنع الكارثة، ومنهم من يترقب نتائج المعركة، وما الذي ينوي الغرب فعله؛ حتى لا يتورط في تأييد موسكو، أو معارضتها، ويخسر. كذلك مستقبل المقاومة الشعبية سيتحدد- بشكل كبير- بناءً على نتائج المعارك الأولية، وإطلاق الغرب كل ما في جعبته من عقوبات، وانتظار تأثيرها في الميدان، للتأكد قبل اتخاذ موقف نهائي: هل الوجود الروسي باقٍ؟ أم سينتهي بسرعة بسبب الضغوط الغربية؟

"لماذا نحتاج إلى العالم إذا لم تكن روسيا موجودة فيه"، هكذا صرح بوتين، ويبدو أن هذه المقولة ليست مبالغة بالنظر إلى النتائج المترتبة على هذه المواجهة. يمكن لروسيا أن تفتح عدة جبهات في المناطق المتمردة أو تفتح عليها هذه الجبهات، ولديها فيها حلفاء أقوياء

مسلحون ، وتدخل أوروبا كلها في أزمة كبرى ، وتتعقد مساعي واشنطن للتوصل إلى اتفاق مع إيران ، وتشكيل حزام من النيران في البلطيق وآسيا الوسطى ، ووسط أوروبا وشرقها ، وشرق المتوسط ، وإفريقيا الوسطى ، وقد لا يبدو مستبعداً أن تلجأ إلى السلاح النووي التكتيكي إذا ما وجدت أن الغرب يضغط عليها إلى آخر مدى ، ويريدها أن تخرج من هذه المعركة خاسرة ، فكل الاحتمالات مفتوحة .

أوروبا هي المتضرر الأكبر من كل هذه الأحداث ، والحسابات الروسية لا تعتمد على أي دور لأوروبا في هذه المعادلة ، ويبدو أن أوروبا التي نعرفها ذاهبة نحو تغيير كبير ، وسيظل الصراع محصوراً بين موسكو وواشنطن ؛ إما أن تتوصلا إلى صفقة ، وهو أمر صعب ، ولكنه ليس بالمستحيل ، وإما مواجهة مفتوحة ، وهنا يبرز دور الصين ، وما الذي تنوي فعله لترجيح كفة طرف على الآخر ، وإما إنهاء هذه الجولة بمكاسب لكل طرف ، مع تفوق للغرب يضمن عدم حصول روسيا على كل ما تريد ، وعدم تغول الغرب بأن يكسر موسكو ، وفي هذه الحالة ستكون الرابح الأكبر .

التأثير الأكبر للعقوبات الاقتصادية على روسيا ، سيطول بلدان آسيا الوسطى ، التي يعمل الملايين منهم في روسيا ، وهو أمر قد يندر باضطرابات في هذه البلدان التي تعاني أصلاً هشاشةً أمنية وسياسية ، ووجود تحدٍ على حدودها ممثل في عودة طالبان من جديد لأفغانستان .

يمكن القول إن سيناريوهات نهاية هذا الصراع قد تكون من خلال تفاهم روسي-أمريكي ، وهو ما تسعى إليه موسكو ، إذا تعرضت روسيا لضغوط شديدة لا تمكنها من استكمال المعركة ، لكن دون تفوق غربي ، يمكن أن تتدخل الصين للتوصل إلى تفاهم بشأن حياد أوكرانيا ، وإقرارها بتبعية شبه جزيرة القرم لروسيا ، وإعادة النظر في قرار استقلال جمهوريتي دونيتسك ولوغانسك-تصعيد غربي كبير ، مع فتح عدة جبهات على روسيا في آن واحد ، وخطأ غير مقصود من الناتو أو ضده ، قد يؤدي إلى حرب مباشرة قد تكتسب صفة العالمية-ضغوط غربية مع تورط روسي في الحرب ، وعدم قدرة على حسمها ، وتخلي صيني عن دعمها ،

وفي هذه الحالة إذا وجدت موسكو نفسها وحيدة، ويريد الغرب تركيعها، قد تجد روسيا نفسها مضطرة إلى تطبيق مقولة بوتين "لماذا نحتاج إلى العالم إذا لم تكن روسيا موجودة فيه"، وهنا كل الخيارات قد تبدو مفتوحة، وصولاً إلى حرب نووية. في كل الأحوال، وأياً ما كانت نتيجة هذا الصراع، يرجح- إلى حد بعيد- أن نشهد عالمًا مختلفًا عما ألفناه منذ عام 1991، ونهاية للرأسمالية بشكلها الكلاسيكي.

على المستوى الداخلي، موقف الكرملين قوي ومتماسك، ولا يتوقع أن تؤدي العقوبات الاقتصادية التي وصلت إلى حد الحصار، ومحاولة التخلص من كل ما هو روسي، وما تبعه من تعبئة للرأي العام المحلي ودعمه لهذه "العملية العسكرية" بعد رفض البعض، وتردد البعض الآخر، ولكن روسيا بلد المفاجآت التي تضرب في كثير من الأحيان عرض الحائط بكل التوقعات، وكذلك المنطق، وقد تكرر هذا الأمر عبر التاريخ عدة مرات، منها على سبيل المثال ثورة بوغاتشيف (1773-1775)، التي أوقفت تقدم الجيش الروسي بعد عدة انتصارات نحو إسطنبول "لاستعادة" القسطنطينية كما كان العقل الإمبراطوري الروسي يحلم؛ وثورتا فبراير وأكتوبر 1917، اللتان أدتا إلى انسحاب روسيا من الحرب العالمية الأولى بعدما أصبحت أقرب ما تكون إلى تحقيق النصر؛ والمحاولة الانقلابية عام 1991، التي عصفت بآخر محاولة للإبقاء على الاتحاد السوفيتي. كما قيل "لا يمكن فهم روسيا بالعقل وحده".



CAES
مركز الدراسات
العربية الأوراسية